ذاكرة
يبللها
المطر

المقدمة....

الحمد لله أن قُدِرَ لي أن أكتب هذه الرواية

إن استمرار الحياة يحتاج الكثير من الأمل وهذه إحدى الكلمات التي قالها الرجل لتلك الفتاة " إن قطارات الحياة لا تتوقف وهنالك شيء جميل قادم في كل مرة وعلينا أن نعيش لأجله "

الفصل الأول (١)

صوت زخات المطر تعم الشاطئ وأنا أسير مكتتفة اليدين ومعطفي يتطاير من شدة الرياح ,الأجواء باردة والأفكار تتزاحم بداخلي كأمواج البحر المتلاطمة أُفكر فيما مضى وفيما سيأتي وفي داخلي طيات من الذكريات يبعثها المطر لتبلل ذاكرتي وتعود بي إلى أعوام من أحزان وذكريات ما زالت تحيا بداخلي كما أنها لم ترحل عني .

رجعت بخطواتي إلى الخلف لأعود إلى المنزل فعادت بي ذاكرتي إلى ذلك اليوم الذي كنت فيه عائدة من المدرسة أحمل حقيبتي وأمسك كتابا بيدي أسير بسرعة على الرصيف الأمطار تشتد ,الشوارع مكتظة بالناس ...دخان السيارة المارة من جانبي كاد أن

يخنقني بسبب ما أعانيه من حساسية في الجهاز التنفسي وصلت عند موقف السيارات انتظر قدوم والدي كما كنت قد اتفقت معه مسبقا ، لم يكن هنالك سوى رجل يجلس على المقعد قبعته السوداء تغطي ملامح وجهه ,معطفه الأسود وهيئته تخفي ملامح الفقر والبؤس عليه كدت أن أختنق من دخانه المتصاعد وسجائره الذي كان منهمكاً بإشعالها الوأحدة تلو الاخرى دون أن يفسح لي مجالا بالجلوس ,أخذت زفيرا لأتخلص من السموم التي دخلت الى قصباتي الهوائية ولم أتوقف عن السعال المتواصل بينما هو لم يتوقف عن معانقة سجائره البشعة بقيت أتأمله حتى وقف، وقعت منه محفظته ولم ينتبه انحنيت لالتقاطها وجدته يركب السيارة ويرحل ناديته –سيدي محفظتك لكنه لم يسمع ,جلست على المقعد بعد أن أصبح شاغرا ثم أخذني الفضول لأعرف ما بداخلها وجدت بداخلها صورة لسيدة جميلة قلت لنفسي – ما أجملها من سيدة ؟!

ثم فتشت باقي جيوبها ولم أجد سوى نقود معدنية وضعتها في حقيبتي ربما سألتقي به مرة أخرى ,شردت قليلا بمنظره وبطريقته التي يُنفس بها عن وضعه بتناوله للسجائر بطريقة بشعة إلى أن جاء والدي ركبت بالسيارة معه التي تحوي قليلا من الدفئ بعد أن كادت يداي أن تتجمدا من البرد ,وضعت حقيبتي بجانبي والتفت إلى نافذة السيارة لأُتابع زخات الأمطار والسيارات المارة من جانبنا .

كانت سيارتنا تسير ببطئ بينما يغمرني حنين هذه الأجواء ويبعثر ذاكرتي ليعيدني طفلة تلعب تحت المطر تقف أمامها أمها وتناديها لتحتضنها من البرد القاسي ولا تعلم أن الحياة أشد قسوة من هذا المطر الطاهر تتبعثر ذاكرتي بين الحين والآخر لالتفت فجأة إلى والدي وهو يقود السيارة فأرى عيناه تقابل عيناي تتأملاني من بعيد ابتسمت له وقلت : الجو بارد أشاح نظره عني وبإكمال تتبعه للطريق قال : أجل .

أخذت أتأمله وجدت التجاعيد تملاؤ وجهه والسواد الهائل تحت عيونه الواسعة التي أطفأتها الحياة، فقد كسا التعب ولون وجهه وهيئته التي يحاول إخفاءها بقبعته السوداء وايشاربه الذي يرتديه ويضعه أسفل ذقنه الممزوج بالشيب الذي بدا ينهي رحلة شعره الأسود معلناً حياة رجل في مرحلة متقدمة من العمر ،لاحظت كم أنه غارق في تأمل الطريق أكثر من شيء آخر فهو لم يلتف لي فقد شعر أنني أتأمله ,أُدقق في تفاصيله التي أشتاق إليّها ...أشتاق إليّها بالرغم من أنني أعلم أنها لن تعود كالسابق فقد اكتفى بأن يراقبني بعيد ليطمئن علي ثم يرحل .

كنت أنتقل من تأملي لزخات المطر إلى التحديق بعيناه البنيتان كلون البندق التي لا أريد إلا أن أشعر بقربهما ووجودهما الذي اعتدت عليه في الماضي لقد أصبحت أؤمن بأن وجوده وبكل هذا الصمت يكفيني يكفي أنه الوطن الذي ألجأ إليّه فبمجرد النظر إليّه أستعيد

توازني وقوتي لأنني أعلم أنني أتكأ على كتف لن يخذلني أبدا لكنني أشعر أحيانا برغبة أن تتلاشى المسافات أن لا تكون بهذا البعد وبهذا الجفا ومن خلال هذه الأفكار المتداخلة استطعت أن أجعل الوقت يمر وأن نصل إلى المنزل دون شعوري بالمسافة .

ركن والدي سيارته ودخلنا معا بعد أن سرنا جنبا إلى جنب تحت أمطار شديدة ورياح تعسف بنا من شتى النواحي ,فتح والدي الباب بعد أن أخرج المفتاح من حقيبته السوداء التي تمتلئ بأوراق عمله ,خلعت حذائي وبخطوات سريعة ذهبت إلى غرفتي أشعلت الضوء فيها وفتحت الستائر ,خلعت معطفي المبلل من المطر وبدأت ترتيب الإنهيار داخل الغرفة ,فنجان قهوتي والكتب المبعثرة على الطاولة وملابسي فوق السرير بقايا ليله ماطرة ليلة كانت تشتد فيها الأمطار

بينما كنت أجلس عند النافذة احتسي فنجان قهوتي المُرة التي تجعل ذاكرتي تتسارع في تقديم الذكريات بين حلوة ومرة التي تنتهي بانتهاءها أو حين تبرد معشوقتي السمراء تجعلني أعيش ذكرياتي مرة أخرى لكن هذه المرة لوحدي سأكون كل هؤلاء الأشخاص الذين كانوا هنا يوما ما ورحلو ,ذكرياتهم تصر على ابقائي يقظة في كل ليلة بالرغم من أنها تعرف أنني متعبة .

سرحت شعري المبلل من المطر وأمسكت الفنجان بيدي اليمنى لأُعيده إلى المطبخ وجدت والدي يشرب الماء وضعت الفنجان على الطاولة وعدت إلى غرفتي أخذت أنظر إلى مظهري في المرآة شعرت بأن ملامحي كبرت فجأة ،تغيرتُ من الداخل والخارج أصبحت أجهل كل شيء عن نفسي ولا أعرف ماذا سيخبأ لي المستقبل من أحداث بعد ,وجدت ملصقا صغير في الجانب الأعلى من المرآة نزعته بيدي كانت مذكرة

اختبار أخذته الأسبوع الماضي في الرابع من ديسمبر

لقد نسيت تمزيقها كما هي حال بعض الأمور في حياتنا

لا نستطيع أن نمزقها ونرميها في سلة المهملات لا نستطيع أن نبعدها عنا فهي تعيش في الجزء الذي لا نستطيع حذفه أنها تعيش في الذاكرة .

سرت متمايلة لأصل إلى حقيبتي بعد أن خذلت قدماي بسبب الجلوس الطويل وكأنني في الخمسين من عمري

,أخرجت محفظة الرجل ذو القبعة السوداء وأخذت أتأمل صورة السيدة أثارني جمالها فإن كانت حبيبته فكيف لها أن تحب رجلا بهذا البؤس والفقر أرجعت الصورة إلى المحفظة ووضعتها في حقيبتي على أمل اللقاء به مرة اخرى.

أخرجت قبعة وايشاربا لي من الخزانة فالبرد أصبح يقشعر جسمي ثم ارتديت معطفا بني اللون والطويل بعض الشيء طويل لكنه يفي بالغرض يدفئني ولو بالقليل وذهبت إلى المطبخ مررت بجانب غرفة أبي

سمعت صوته وهو يتحدث مع أحدهم على الهاتف الأرضي مشيت على رؤوس أصابع قدماي واقتربت من الباب قربت أُذني لكنني لم أسمع ما يقوله بوضوح نظرت إلى الممر وإلى الأبواب التي أُغلقت وللأبد شيء ما بداخلي بدأ يقشعر جسمي وقفت بعدها عند باب المطبخ الهواء بارد فيه فالمنزل كبير لكنه مهجور لا حياة فيه يشعرني دائما بالحزن والألم كما أنني لم أعد أتحمل العيش فيه أكثر من ذلك فكل شيء متعلق بهم ’,اقتربت من النافذة كان ما يزال المطر يهطل وبغزارة دون توقف كذكرياتهم التي تحيا دون توقف ,عودتي من المدرسة وامي تحضر الطعام على النار وتسألني بين الحين والآخر هل تشعرين بالبرد ؟! آه !! والف آه !!كم أشعر بالبرد يا أمي ؟! كم أشعر بأنني وحيدة من دونك كم وكم.... أضيع في طريقي ولا أجد من يسأل إن كنت بخير أم لا ؟ أنتي الأمان والسلام الذي كان يعمني لقد أصبحت أتذكر تفاصيلك الصغيرة وأبكي أصبحت وحيدة بين جدران باردة لا

عائلة ولا دفئ في هذا المنزل الكبير والواسع لقد رحلتم ورحلت السعادة بقيت معي ذكرياتكم ، فتحت الثلاجة لأتناول الطعام الذي أعده والدي لكنني سرعان ما أغلقتها لا شهية لي على تناول الطعام لقد أصبح جسمي نحيلا حتى معطفي الذي ارتديه أصبح واسعا وكأنني أرتدي معطفا لشخص آخر يكبرني بخمس سنوات مررت من جانب غرفة أمي المجاورة لمكتب والدي نظرت إلى بابها البني المزخرف تأملته حتى جائتني رغبة بأن افتحه وأدخل إلى الداخل لكنني سرعان ما أرجعت المفتاح إلى مكانه فقد مضى أكثر من عامين ولم أدخلها ولم أمتلك الجرأة على ذلك وقفت قليلا وأنا أضع يدي على الباب اقتربت أكثر منه, شعرت وكأنني أسمع صوت أمي توسعت عيناي فجأة واضطربت دقات قلبي بسرعة وذعرت من ذلك قربت أُذني أكثر فسرعان ما ذهب هذا الشعور كان الهواء يأتي من زوايا الباب فقد أصبحت الغرفة باردة جدا فبدون دفئ قلبك يا أمي كل شيء بارد انهمرت دموعي

بغزارة وكأنها أمطار تهطل وبسرعة دون توقف, مسحت دموعي بيدي اليمنى تارة وبيدي اليسرى تارة أخرى ثم رفعت خصلات شعري المنسدل وعدت إلى غرفتي شعور مميت إلى حد الشفقة اختناق من كل شيء ... من الذكريات التي يبعثها المطر فتبقيني يقظة بالرغم من تعبي من كل شيء .

أطفأت الضوء الشاعل في منتصف الغرفة واستلقيت على السرير أكملت بكائي حتى نمت استيقظت على صوت والدي وهو يطرق الباب شعرت بتكسر في جسمي وكأنه يرفض الاستيقاظ وكأنه بحاجة لوقت أطول من النوم ,عاد والدي يطرق الباب مرة أخرى بصوت عالي قمت من فراشي بعدما استجمعت كل قواي للوقوف على قدماي فتحت له الباب وأنا ما زلت أشعر بالنعاس ولم أتوقف عن التثاوب لحظة وأحدة نظر إليّ متعجباً من عيوني المحمرة اللون من بكائي الذي قد ملأ وسادتي قال لي بعد أمعن النظر إلى

عيوني سنأكل معا لقد انتهيت من تحضير الطعام ثم سكت بدا لي وكأنه يريد أن يسألني عن حالي لكنه لم يسأل مسح بيده على رأسي وذهب وأنا بدون كلمة وأحدة سرت خلفه لنأكل معا نظرت إلى الطعام والصحون التي تملاء الطاولة اعتقدت بأن هنالك أحد آخر سيشاركنا الطعام ,بدأت الأكل ببطئ دون شهية لفعل ذلك لقد كان والدي مضطرا للطهو فأنا لم أتعلمه فقد رحلت أمي قبل أن تعلمني اياه كنت أنظر إلى أبي وهو يأكل بشراهة وكأنه عمل يريد أن ينجزه ويعود إلى عزلته وإلى مكتبه بين أوراقه وملفاته أكملت طعامي بينما هو انتهى من ذلك فقام عن كرسيه ووقف عند النافذة يتأمل زخات المطر التي ترتطم بالأرض مع أفكار لا أعلم ما هي وماذا قد تكون ؟! لكنها كانت تهز كيانه وترغرغ عيناه ربما حنينه إلى شيء ما فالمطر يجعل الذاكرة ترتطم من الداخل كما يرتطم بالأرض وبخطواته الهادئة التي تحمل الرزانة والرجولة في آن وأحد ذهب إلى مكتبه وأغلق الباب

على نفسه بينما كانت عيناي تريد أن تراه وبقوة أن تتمسك به أن يكون ملجأ لي لترحل هذه الأحزان عن قلبي فتهل عليه السعادة من جديد .

وضعت الخبز في السلة وقمت بتنظيف الطاولة وجلي المواعين ,الماء شديد البرود حتى يداي تجمدتا من البرد فلم أعد أشعر بهما وضعت الركوة على الغاز وفيها مزيج من البُن والماء شعرت بأنها ستستغرق وقتا أطول لتثور وتغلي فالماء بارد جدا شعرت كم أنني أشبه هذه اللحظات فكم يستغرق جسمي وقتا طويلا ليدفئ بينما يجتاحه البرد في أقل من ثانية ,عدت إلى غرفتي ووقفت عند النافذة كان المطر قد توقف لكن الريح قوية تكاد أن تقتلع الأشجار أمسكت القلم لأبدأ بالكتابة كان هنالك شيء ما في داخلي يريد أن يثور أن يكتب على السطور ما لم أستطع البوح به ربما أن الرياح التي تثور في الخارج والسماء التي تلبس ثوبها الأسود الذي ينصفه ضوء قمرٍ ساطع

تبعث في داخلي شعورا ما وكأن الليل يدعوني لأكون جزءا منه فتحملني الرياح بعيدا إلى عالم مختلف تدعوني به النجوم لأرقص معها على أنغام زخات المطر فأرى خيالات لكل شخص مرَّ في حياتي يعجز قلمي عن الكتابة عنهم .

لا انكر أنني أضيع يوما بعد يوم وأن صحتي تتراجع شيئا فشيئا كما هي إرادتي ولا أعلم السبب الذي يجعلني أتمسك بالحياة لكنني أشعر بأن الله هو الأمان في هذا العالم سيعوضي مما فقدت ,قمت من عند النافذة واتجهت نحو الراديو الموجود على الرف بالقرب من السرير وقمت بإشعاله كانت إعادة الأخبار التي تم بثها نهار اليوم أخذت أستمع إليّها ,الأخبار تتحدث عن الأوضاع السياسية وتوترها وعن كثرة الأمراض المنتشرة وعن الكثير من الأخبار المتنوعة .

تناولت كتاب اللغة العربية لأبدأ الدراسة أخذت أُقلب صفحاته بشكل عشوائي وقفت عند قصيدة للشاعر بدر

شاكر السياب عراق مررت بأصابع يدي اليمنى على سطورها فبدأت ذاكرتي تعود إلى عامين كما عادت ذكريات الشاعر إنها الأم والوطن الذي افتقده فقبل ثلاث أعوام لم يكن هنالك سوى ضحكات وأمسيات وليال دافئة تملاءها الحب ,عدت إلى النافذة ممسكة بفنجان قهوتي التي بردت بدأت الأمطار تهطل وبغزارة ...

تذكرت تلك الايام التي كانت تشتد فيها الأمطار فنجلس جميعنا بالقرب من الموقد تحيك أمي قطع الصوف بينما يقرأ والدي الجريدة أما أخي كمال فقد كان يكتب إحدى المقالات للجامعة بينما أنا أقف عند النافذة أُراقب المطر لم يكن للبرد أي مكان بيننا فالحب كان كفيلا بأن يذيب الثلوج فكيف وإذا كانت مجرد أمطار إلى أن حصلت أمور غيرت مجرى حياتنا وإلى الأبد رحل الجميع عن مكانه بقيت أنا أجلس عن النافذة وأراقب المطر ، أعيش على ذكرياتهم .

لقد كان والدي ضابط في الجيش ذو رتبة عاليه يحمل على عاتقه حب الوطن أكثر من أي شيء آخر أما أخي كمال فكان طالبا في كلية الحقوق في السنة الثانية طويل القامة ذو بشرة سمراء كان كثير الشبه من والدي فقد كان يهتم دائما بأن يساعد كل محتاج وأن يقف في وجه الظلم كان شجاعا لا يهاب شيئا يسير على المبادئ التي رباه والدي عليها لكنه تغير كثيرا عندما بدأت علاقته بصديقه علي لقد كان يذهب كثيرا لزيارته ويقضي أيام العطلة في منزله كان يعيش صديقه علي في أحدى الأحياء الفقيرة وكان كلما عاد من زيارته لاحظنا تغيره حتى في أبسط الأشياء لقد أصبح كلامه لا ينتهي عن قرارات الحكومة عن رفع الضرائب وزيادة الأسعار وغيرها من القرارات التي تمس حياة الشعب حينها أخبر والدي أمي ملاحظته بتغير كمال وقال لها : بأن جميع الشعب مستائون من قرارات الحكومة لكن ليس بطريقته التي يهدد ويتوعد للمسؤولين بأن يدفعوا ثمن جوع الشعب وفقره ، لقد

كان والدي يشك بأن هنالك من يبعث في قلبه الكره والحقد للوطن ، وذات يوم كان عائدا من زيارة صديقه واجتمعنا جميعا على المائدة لتناول الطعام بينما كانت الأخبار تبث بالراديو عن الحفل التكريمي للوزراء والقادة وكبار الجيش فقد ضجت المدينة بأكملها بهذا الحفل التكريمي ولم يهدأ الهاتف من اتصالات وتهنئة لوالدي لم يكن كمال سعيدا بهذا الحفل التكريمي فلم يناقش بكلمة وأحدة عن أي حديث دار بيننا عن الاشخاص الذين حضروا الحفل وعن اصدقاء والدي الذين كانوا موجودين هناك ، كانت علامات الغضب تثور وتظهر على ملامحه كلما تحدثنا عن الوطن والحب الذي ينبغي أن نحمله تجاهه لكنه لم يعد يتحمل أي كلمة مديح عن الوطن حتى قال كلامه المشؤوم وبطريقة غير لائقة موجها اياه لوالدي : أنتم تأخذون الجوائز والشعب يتضور جوعا لدفع تكاليف حفلاتكم !! انعقدت حاجباي والدي بعدما سمع كلامه فلم يكن متوقعا منه هذا الكلام بعد الصمت الطويل لكنه

رد عليه ردا جامدا وقويا وهل أنت تتضور جوعا يا كمال ؟ سكت كمال ووقف عن الكرسي حاملا الجريدة بيدة اليمنى ويشير على محتواها قائلا لوالدي أنظر إلى الأخبار أنظر إلى معاناة الناس وهم ما يزالون يرفعون الضرائب يوما بعد يوم ، حاولت أمي تهدئته وقالت له عليك التحدث مع والدك باحترام لقد كانت تعلم بأن الوطن هو أهم شيء بالنسبة لوالدي وأنه لا يتحمل أي كلمة تقال بحقه ، كان والدي لا يزال هادئا محاولا تقبل كلامه إلا أن قال له كمال أنت تتحدث عن المبادئ التي نسيتها في عملك نسيت بأن عليك أن تعارض ما يضر بالمواطن نسيت بأن هنالك من لا يملك سعر علبة دواء وأن هنالك من يتضور جوعا لكنك رضيت بأن توافق على قراراتهم في رفع الأسعار والضرائب لتأخذ ترقيتك وتحتفل بجائزتك ,ضرب والدي بيده على الطاولة بقوة كبيرة حتى شعرت بأن الصحون ستتطاير وبأن الوضع بدأ يزداد توترا وقلقا ثم أشار بيده نحو الباب وقال لكمال اخرج من البيت لا

أريد أن تعيش معنا تسعى للتحريض ضد قرارات الدولة تريد أن تشعل نار الفتنة ثم جلس على الكرسي وفتح أزرار قميصه فقد شعر بذبحة في صدره وقفت إلى جانبه بينما لبس كمال حذاءه ونظر إلينا ونحن بجانب والدي فشعر بأن لا مكان له بيننا وأن عليه أن يغادر ، نادته أمي ولم يلتفت توسلت والدي بان يبقيه قالت له : أرجوك إنه ابننا الوحيد سيضيع من بين أيدينا لكن والدي لم يهتم لكلامها دخل مكتبه وأغلق الباب على نفسه ,لم تقف أمي مكتتفة اليدين بل لبست حجابها وخرجت إلى الشارع لترجع كمال إلى المنزل لكنها لم تجده حتى وإن تمسكت به فلن يعود.

لقد كان الوضع صعب على كلاهما فكل وأحد يقف في صف مختلف عن الآخر وكلاهما يحارب من أجل فكرته وسياسته كانت الأوضاع متدهورة في الدولة بأكملها وتزداد سوءا يوما بعد يوم بسبب الضرائب وغلاء الأسعار لقد أصبحت الحياة صعبة بالنسبة لأغلب

الشعب بينما يعيش الأغنياء في ترف وحياة مرفهة فارتفاع الأسعار لا تشكل فرقا كبيرا بالنسبة إليّهم .

أغلقت دفتر مذكراتي وأطفات الضوء الشاعل في الغرفة لإنني سأخلد إلى النوم فقد تأخرت الساعة كثيرا أصبحت الثانية بعد منتصف الليل غطت في سبات عميق واستيقظت على صوت زقزقة عصفور يقف عند نافذة الغرفة كأنه يبحث عن طعامه بعد أن توقف المطر نهضت من فراشي وذهبت إلى الحمام لآخذ دوشا خفيفا بعد أن شعرت بأن العرق يتصبب جسمي ، بعدها نظفت أسناني وأخذت أنظر إلى نفسي بالمرآة شعرت بأن وجهي ما زال عابسا فقمت بغسله مرة أخرى بالماء البارد وبسرعة لبست ثيابي ووجهت نفسي إلى المطبخ لتناول الفطور لقد كان والدي قد ذهب إلى عمله ولم أتمكن من رؤيته .

إنها الغربة يا عزيزي أن نعيش معا ولا نرى بعضنا إلا دقائق قليلة وأن لا نتكلم إلا بكلمات محدودة ورسمية، أخذت نفسا عميقا ثم زفيرا إلى الأعلى وبعد تنهيدة طويلة لا بأس سأكون على ما يرام ,سرت إلى الموقف الذي يبعد عن منزلنا بشارعين في البداية أخذت أعد خطواتي خطوة خطوة ... الجو بارد ومعطفي يتطاير من جوانبه يخنقني دخان السيارات المارة من جانبي فيجعلني أضع إيشاربا على أنفي أتامل الأشخاص المارة وفي الشارع الثاني أومأت راسي إلى الأسفل أنظر الى زخات الأمطار الخفيفة وهي ترتطم بالأرض وأُميز المارة من أحذيتهم إن كانوا رجالا أم نساء وأسمع أصواتهم عندما يصبحون قريبين مني ، وصلت الموقف كان هنالك مجموعة كبيرة من الاشخاص الذين ينتظرون قدوم الباص الكل يتهامس عن الجو البارد بينما أقف مطأطأة الرأس يغلبني النعاس فأنا لم أنم ليلة الأمس بشكل جيد ، لقد أصبحت ارهق جسدي كثيرا بالسهر الطويل ،كانت

تقف بجانبي امرأة عجوز وما إن رفعت رأسي حتى قابلت عيناي عينيها فابتسمت لي قابلتها بابتسامة أخرى ,وقف الباص صعدت في البداية سيدة ثلاثينية معطفها أحمر ثم رجل بالخمسين من عمرة ثم جعلت السيدة العجوز تتكأ علي لتصعد ثم صعدت أنا ،جلست بجانبها لم أجلس هذه المرة عند النافذة فقد أخذت مكاني تنظر إليّ وتبتسم ترمقني بنظراتها أثارت اعجابي نظرت إليّها وسألتها : إلى أين ستذهبين ؟! ابتسمت لي وعادت تنظر إلى النافذة ولم تُجبني على سؤالي .

بدأ الباص يتوقف عند كل محطة لينزل الركاب كانت مدرستي هي الأبعد مسافة بينهم بقيت المرأة العجوز ولم تنزل كانت مستمرة بالنظر من النافذة بوجه مبتسم وعند وصولنا المدرسة حملت حقيبتي لأنزل من الباص ، دفعتُ الأجرة للسائق ثم أدرت ظهري لأنظر إلى المرأة العجوز مرة أخرى قبل نزولي كانت منهمكة

بالنظر إلى النافذة ،سرت بخطوات ثابتة بإتجاه باب المدرسة لكنه استوقفني صوت رجل غريب ينادي علي : يا آنسة ، توقفي لو سمحتي التفت لأرى من يكون كان سائق الباص عدت أدراجي إليّه وقلت له : ماذا تريد ؟! فأجابني بسؤال هل تعرفين هذه السيدة العجوز من تكون ؟! قلت له : لا ,لا أعرف وأدرت ظهري لاذهب إلى مدرستي ،سرت خطوتين إلى الأمام لكن ابتسامة تلك المرأة العجوز حركت شيء ما بداخلي تجاهها ربما أنني شعرت بالعطف والرأفة عليها فليس علي أن أتركها وأرحل دون أن أطمئن عليها عدت أدراجي إليّه وقلت له : يا سيدي لا أريد أن أتركها وأردفت قائلة ولن أذهب إلى أي مكان حتى أطمئن عليها شكرني سائق الباص وقال لي بأنه لا يعرف كيف سيجازيني على هذا المعروف ثم سألني قائلا: لكن ماذا عن دوامك ؟ فقلت له لا يهمني الآن سوى ارجاع هذه العجوز إلى منزلها ركبنا الباص وبدأ يسير بنا سنعود إلى المحطة الأولى حيث ركبت

العجوز ، جلست إلى جانبها وأخذت أسألها وأحاول أن أجعلها تتحدث

–إلى أين تريدين الذهاب؟!

–ما هو اسمك ؟!

–من أين أنتِ ؟!

لا أعلم إن كانت صماء أم لا فهي لم تتحدث بكلمة وأحدة كانت المناظر التي تنظر إليّها من النافذة أهم بكثير بالنسبة إليّها من أين ستذهب ؟! كان المطر يتساقط بشكل متفرق ...السيارات تسير ببطئ خشية الحوادث أما عن نفسي أشعر بالقلق من الداخل تجاهها وتجاه عدم ذهابي إلى المدرسة وأنهم سيخبرون والدي بذلك، عم الصمت طريقنا إلى أن نظرت إليّ العجوز وقالت لي :أشعر بالبرد ....توسعت عيناي ونظرتُ إليّها بإستغراب وقلت : لستِ صماء ناديت على السائق بصوت عال وقلت له : يا سيدي ليست صماء إنها تتكلم شعرت بالإرتياح القليل لإنها لم تكن

صماء وقلت لها : سيدتي ساعدينا لنعيدكِ إلى المنزل وأردفت قائلة : أعطيني حقيبتك من فضلك ، لكنها هزت برأسها يمينا ويسارا بمعنى الرفض وتمسكت بحقيبتها بقوة خوفاً من أن آخذها منها شعرت بإنها تملك فيها شيء غالي الثمن وبعد محاولات اقناع أنني لن آخذ منها شيء سمحت لي بأخذ الحقيبة ،وما إن فتحتها كانت تحوي على أدوية وبعض النقود وأوراق مراجعة عند طبيب ووجودت ورقة مطوية أخرجتها من الحقيبة وفتحتها لاقرأها كان مكتوب عليها عنوان المرأة العجوز ومكتوب أيضا من يجدها من فضلك أعدها إلى المنزل وشكرا ،رفعت الورقة ووضعتها أمام عينيها لتقرأ الكلام فابتسمت لي وكأنه شعور الطمأنينة بعد الخوف أو ربما تذكرت شيء ما .

لا أعلم ما هو مرضها ربما تعاني من الزهايمر ،أعطيتها حقيبتها فعادت تمسكها بقوة كالسابق وتنظر إليّ وتعاود النظر إلى النافذة ،سرتُ نحو السائق

وأعطيته العنوان أخذه بيده مبتسما مسرورا لأننا تمكنا أخيرا من معرفة منزلها ،شكرني وبادلته بالرد هذا واجبي ، وأنا أعود إلى مقعدي نظرت إلى الزجاج الخلفي للباص وجدت أننا ابتعدنا كثيرا عن المدرسة كان الوقت يمر ببطئ كعجلات السيارات المارة من جنبنا ،يذهب وقت ويأتي آخر ننتقل فيه من مكان إلى آخر فقد أصبحنا نبتعد أكثر عن ضجيج المدينة وبدأنا نقترب أكثر من منزلها أخرجت كتابا وبدأت أقراؤه أما هي فقد غلبها النعاس واتكأت على كتفي لتنام ،شعرت بشعور غريب فكيف وأنا بكل هذا الضعف هنالك من يتكأ علي ؟! ،وصلنا الحي الذي تسكنه بعد أن بدأت أشعر بالنعاس من طول الطريق وضعت يدي على رأسها لأرفعه عن كتفي وقلت لها بصوت منخفض يا سيدتي لقد وصلنا كنت أحاول إيقاظها بشكل هادئ حتى لا تصاب بالذعر وبالكاد فتحت عيونها فقلت لها : سيدتي لقد وصلنا منزلك أومأت برأسها وأمسكت حقيبتها واتكأت علي لتتمكن من النزول، نزل سائق

الباص فقلت له من فضلك سيدي هلا انتظرتني فقال لي : : نعم بالتأكيد ، سأنتظرك لأُعيدكِ إلى الموقف .

أكملت سيري فامتلأ حذائي بالطين المبلل بالمطر ، كان المطر ينزل بشكل متقطع ولم يشتد بعد لكن الأرض تبللت بالماء فأصبحت مليئة بالطين اللزج طرقت الباب بعد أن تأكدت من العنوان الموجود على الورقة لكن لم يكن هنالك أحد في الداخل ليفتح لنا .

عدت لأقرأ العنوان ظننت أنني أخطأت وما إن رفعت رأسي حتى وجدت السيدة العجوز تفتح الباب وتدخل ، سرت خلفها عبر ممر مؤدي إلى حجرة استلقت فيها على السرير ونامت أمسكت الغطاء ووضعته عليها فالمنزل شديد البرودة خرجت من الغرفة فَلفتني قبعة معلقة ع الحائط أسفلها فراش وعليه غطاء ربما هنا ينام الشخص الذي يعيش معها .

زوايا المنزل مليئة ببيوت العناكب كما أن السقف يتسرب منه ماء المطر ،سمعت صوتا في البيت فسرت

بإتجاهه كان صنبور الماء غير محكم الاغلاق فكانت قطرات الماء تصدر صوتا يمتد صداه عبر كل زاوية من هذا المنزل يا للأسف! فكيف يعيشون في هذا البيت؟! خرجت منه بعد أن تركت ورقة كتبت عليها أن هذه السيدة أظلت طريقها اليوم فأرجو ممن يبعيش معها أن يعتني بها جيدا ثم خرجت.

ركبت الباص فسألني السائق أكان منزلها ؟! فقلت له نعم ،منزلها وأردفت قائلة : سنذهب إلى الموقف حيث منزلي فقال لي : نعم إلى الموقف .

بقيت أشعر بالقلق تجاه المرأة العجوز بأن تفقد ذاكرتها مرة أخرى وتظل طريقها دون أن تجد من يساعدها ،لم يلفت إنتباهي من قبل أمر فقدان الذاكرة فكم يعاني المرء عندما يفقد ذاكرته ،أن ينسى عائلته وأصدقائه والأماكن التي عاش فيها .

تخيلت نفسي كيف سأكون يوما ما عجوز بعمرها أفقد ذاكرتي ،أسير في الطرقات بين الأشخاص أنظر إليّهم

من بعيد أراقب تصرفاتهم ،اتخذ طريقا مختلفا عنهم ،أبتسم لكل شخص وفي النهاية يعيدني أحدهم الى المنزل .

وصلت الموقف وأنا لم أشعر بالطريق كان هنالك أشخاص قليلون عند الموقف ،أسرعت خطواتي للذهاب الى المنزل فقد بدأ المطر يشتد ،وجهت نظري إلى الأسفل لأرى كيف ترتطم قطرات المطر بسطح الأرض فتصنع لحنا جميلا يطرق مسامعي ....

الناس يتراكضون للإختباء من هذا المنظر الذي يسعدني بينما هنالك من نسي أن يأخذ غطاؤه وحذاءه الممزق من تحت الشجرة الموجودة على يمين الرصيف يبدو أنه أمضى ليلة صعبة تحت المطر.

وصلت المنزل وخلعت حذائي وتركته بجانب الموقد حتى يجف من الماء ثم دخلت غرفتي علقت معطفي وجلست عند الاريكة لأجفف شعري فكرت بيومي الدراسي الذي أضعته اليوم وقررت بنفسي بأن علي

الدراسة بشكل مكثف هذه الليلة ،عاد والدي من عمله كانت صوت أقدامه تصل إلى مسامعي بينما أجلس على الاريكة في غرفة الجلوس أحتسي الشاي وأتناول قطع من الكعك سمعته وهو ينادي علي -إليّن -إليّن عدلت جلستي وقلت نعم يا أبي أنا هنا اقترب نحوي وقال لي : لقد إتصلت بي إدارة المدرسة وتسألني عن سبب غيابك ؟! وأردف قائلا ألم تذهبي للمدرسة اليوم ؟ أخذت أحكي له ما حدث معي وكيف أنني ساعدت المرأة العجوز في إعادتها للمنزل كان يستمع لي وبإنصات ثم قال : كان عليكِ إعطاء خبر للمدرسة وسكت دون أن يخبرني أنه أمضى يومه قلقاً عليّ عاد الى مكتبه وأغلق الباب بينما أكملت جلوسي على الأريكة أحضرت الذرة وأشعلت الراديو وأستمتعت بدفئ الموقد نظرت إلى عقارب الساعة التي تسير دون توقف بينما الحياة تتغير دون أن تثبت .

عرفت كم أنه يبقى هنالك شيء جميل في كل وقت نعطيه للآخرين حتى وإن كنا نفتقده كالحب الذي نأخذه منذ طفولتنا ويبقى معنا حين نموت ،يجعلنا نعطي الآخرين نقف الى جانبهم ،يبعث فينا أملا بأننا سنحصل على ما نريد يوما ما أو ربما ستهدينا الحياة أشخاص طيبون يمسحون تعب مشوارنا ويجعلونا أفضل بكثير من قبل .

تسائلت إن كان هنالك من يعتني بالمرأة العجوز أم لا ؟! وتمنيت لو أنني أملك جدة لي تعيش معنا تحكي لي القصص والأساطير ،عدت إلى غرفتي بعد تناولي طعام الغذاء مع والدي لقد كان طعامه لذيذا ساخنا وذو طعم رائع ومذاق طيب ،أخبرني والدي بأنه فخور بي وأنني إبنة رائعة.

لقد صدمني مدحه لي لأنني شعرت بغضبه وهو يسألني عن سبب غيابي فتحت الستائر والنافذة قليلا لتدخل الهواء إلى الغرفة ثم ذهبت باتجاه حقيبتي

وفتحتها أخرجت منها محفظة ذلك الرجل ذو القبعة السوداء تذكرت لحظة لقائي به عند الموقف وسعالي المتواصل آنذاك ثم أرجعتها إلى الحقيبة ،وبدأت تحضير البرنامج وإعداده للدراسة وضعت الكتب التي لا أحتاجها إلى الرف ،أغلقت النافذة وبدأت الدراسة، كنت أشعر بالنعاس والتعب عند انتقالي من مادة إلى أخرى كنت أواجه صعوبات في مادة الرياضيات لكنني بارعة في مادة التاريخ في تذكر الأحداث التي مضت والتي ما زلت أحن إلى عودتها.

قهوتي السمراء وقلمي الذي لم يفارقني ليلة وأحدة يجعلني أشتهي هذه الليلة التمرد على كل شيء على السطر وكتابة ما لم أستطع البوح به أمسكت دفتر مذكراتي وقلبت صفحاته حتى وصلت عند حزن أمي وعينيها التي لم تتوقف عن إذراف الدموع لرحيل كمال الذي لم يلتفت لها ،شعرت أمي بالحزن الشديد، كانت دموع عينيها تُذرف وبغزارة وكأنها تقول بأنه الوداع

الأخير بقيت إلى جانبها ليلة طويلة ،دقائقها كانت تمر ببطئ أخذت أتأمل زوايا الغرفة حتى غفوت قليلا واستيقظت بِذعر على صراخها وهي تقول لا ترحل تقولها بألم وحسرة لا ترحل أقتربت منها لأطمئن عليها كانت تحلم ، فالموقف الذي حصل جعل أحلامها لا تنام بدأت أشعر بالخوف والقلق عليها مرت علي الليلة هكذا بين ضجيج قلبي ودقات عقارب الساعة واستيقظت في الصباح الباكر ولم أجدها على السرير خرجت مسرعة للبحث عنها وجدتها تجلس على الأريكة في غرفة الجلوس ،ذهبت باتجاه مكتب والدي لأطمئن عليه طرقت الباب عدة مرات ولم يفتح لي فتحت الغرفة فلم أجده كان قد غادر .

كانت الإحتجاجات قد بدأت تعم المدن المجاورة لمدينتنا ولم تستطع أمي أن تبقى مكتتفة اليدين دون أن تجد كمال فقررت الذهاب للجامعة بحثاً عنه ،وذهبت معها سرنا بإتجاه موقف السيارات ولم أتحدث مع أمي بكلمة

وأحدة فالكلام يجعل الوضع أصعب بل ويزيد المسافات بعداً وكلانا في داخله معركة من الأحداث واستباقا لما سيحصل إلى أن وصلنا الموقف ، لم يكن هنالك سوى سيدة كانت تلتفت إليّنا وتقول اللهم سترك من هذه الأوضاع كان قلق هذه السيدة يرمي الخوف في قلوبنا ويزيد توترنا فالكل خائف من الإحتجاجات وتوتر العلاقات بين الشعب والحكومة، كان من السئ أنه لم تقف سيارة وأحدة لتنقلنا إلى الجامعة مرت أكثر من ساعة ونحن ننتظر إلى أن وقفت سيارة رمادية اللون أشر صاحبها علينا وقال -اركبوا دخلنا السيارة وقلت - الحمد لله سأل السائق : إلى أين فأجابته أمي إلى الجامعة .

ومن نافذة السيارة التي يبدو على صاحبها الفقر أخذت أتأمل الشوارع والمحلات المغلقة والبيوت العتيقة والحديثة وتجمعات السكان بين الحين والآخر إلى أن وقفت السيارة ونزل السائق منها بناءاً على طلب

شرطي المرور ورجلان من الأمن تحقق من رخصته وجواز سفره وقاموا بتدقيق التفتيش عليه ففتشوا جيوب سترته ثم طلبوا منّا أن ننزل من السيارة ليقوموا بتفتيشها ،كان الغضب قد بدأ بالظهور على السائق ثم ركبنا السيارة بعد أن سمحوا لنا باكمال الطريق .

شغل السائق المحرك وبدأ بالقيادة سألته أمي : هل هنالك سبب لأنهم قاموا بالتدقيق عليك فقال لها وهو ينظر إليّنا من مرآة السيارة لا يا سيدتي إنهم يدققون بالتفتيش لأني لاجئ فقط... نبرات صوته وملامحه تحمل الغضب لتلك المعاملة وخصوصا عندما عرفوا أنه لاجئ لكن أمي حاولت تهدئته وأخبرته بأنهم يدققون على الجميع فالأوضاع متوترة ، وهنالك من يحاول زعزعت أمن الوطن ،أخذ السائق نفساً عميقا مستاءاً من كلام أمي ومحاولا تقبله ، شعرت وقتها بأن علي أن أقول لأمي أتركيه يفرغ غضبه من تلك

النظرات التي ينظرون بها إليّه ومن تلك المعاملة وكأنه مجرم ،بقي هذا الحديث يدور بداخلي ولم أفصح عنه لإنه سيجلب لنا الكثير من المشاكل كما أن كمال هو أحد المتظاهرين ضد الدولة فيجب التحفظ بكلامنا .

وصلنا الجامعة فكان هنالك حشد كبير من الطلاب ،لنعرف بعدها بأنهم سيبدأون احتجاجاتهم من هنا من باب الجامعة الوضع يزداد توتراً كلما أجمعوا أن يموتوا من أجل مطالبهم كانت نبرات الغضب تملاء وجوههم ،لقد كان الوضع صارماً لإنه لن يحل السلام طالما أن هنالك من لا يجد لقمة لعيشه ،بدأنا البحث عنه بين هذه الحشود ولم نتمكن من إيجاده ،لكننا وجدنا صديقه علي ذهبنا مسرعين بإتجاهه لكنه عندما رآنا مقبلين عليه هرب وأختفى بين الحشود ولم نتمكن من رؤيته بعدها ،تبادلنا النظرات بإستغراب أنا وأمي لردة فعله ،مرت أكثر من ساعة ونحن نبحث ونبحث حتى أخذنا التعب وجلسنا على المقعد في ساحة

الجامعة ،بدأت الحشود تخرج وبقينا نتأملهم على أمل إيجاد كمال بينهم ،كان الوقت يمر ببطئ ونحن في حالة توتر تام ولا نعلم أين سنذهب ؟ غادر أغلب الأشخاص ولم يبقى إلا القليل ،أملت رأسي للأسفل منكسرة ،خائبة الأمل لحظة جلوسٍ إستعداداً للوقوف والعودة إلى المنزل إلى أن جاءت فتاة تسأل هل أنتم أقرباء كمال ؟ سمعت صوتها وأنا ما أزال مطأطأة الرأس خشيت أن أرفعه ويكون هذا وهم وليس حقيقة ثم إستجمعت قواي من الداخل ورفعت رأسي بهدوء لتأتي عيوني بعيونٍ بنية واسعة فقلت نعم ،هززت برأسي وقلت مرة أخرى نعم وكأنني أجد أملا بإيجاده، سألتها أمي ومن تكونين ؟ فقالت أنا صديقة كمال أخبرتني فتاة أنكم تبحثون عنه فجئت إليّكم سألتها بسرعة دون مقدمات فهو لا يهمني من تكون المهم هو أن نعرف مكان كمال هل تعرفين مكان كمال؟ نظرت إليّ ولم تجب وجهت الكلام لأمي وقالت : يا خالتي لا أعرف بالضبط مكانه لكنني أعرف أمرا قد

يساعدكم في إيجاده لكنني لا أستطيع إخبارك أي شيء في هذا المكان وأردفت قائلة لنذهب إلى مكان أخر .

فقالت لها أمي كما تريدين سنعود إلى المنزل قبل أن يحل الظلام وقبل أن تُغلق الشوارع بالإحتجاجات خرجنا سويًا من باب الجامعة وكما العادة إنتظار طويل لتقف لنا سيارة لتنقلنا إلى المنزل ،كانت قد بدأت الشمس تغيب شيئًا فشيئا إلى أن وقفت سيارة ركبنا بها وبصمت عمّ طريقنا وصلنا المنزل كانت الشمس قد رحلت وحل الظلام ، جلسنا مع مريم التي بدأ عليها التوتر والقلق لما ستخبرنا به أسرعت إلى المطبخ وأحضرت لها كأسًا من الماء وجلستُ بجانب أمي على الأريكة أمسكت مريم يداي أمي متثبتة بها متوسلة إياها أن لا يعرف أحد ما ستقوله لنا ، بدأت دقات قلبي تخفق وبسرعة شعرت بالخوف قبل أن تبدأ كلامها نظرت إليّها أمي وقالت لها بحزن يملأ عيونها لا بأس أخبريني ولن يعرف أحد ، بدأت مريم تعدل

جلستها وتستعد لما ستخبره لنا ثم قالت يا خالتي سأخبرك بما أعرف كمال كما هو إبنك هو صديقي المقرب لقد تغير كثيرًا عندما تعرف على صديقه علي ثم بدأت تخبرنا كيف أنه إنظم إلى حزب سياسي معارض للدولة وكيف أن علاقته بعلي كانت تؤثر عليه يومًا بعد يوم ،قاطعتها أمي لتشاركها الكلام فقالت لها كلامك صحيح يا إبنتي فقد كان كثيرًا ما يزور علي في الفترة الأخيرة ويقضي عنده عدة أيام ويعود ثم سكتت لتكمل مريم كلامها عن علي وأخوته وكرههم للدولة للإنتقام منها فقد كان والدهم يعمل في الجيش وقد أُتهم بالخيانة وتم إعدامه ،شعرت بالقلق الشديد وبأن قدماي بدأتا تهتز من شدة التوتر كلما كانت تخبرنا أكثر عن حقيقتهم بدأت أمي تلطم على وجهها وتندب رحيله لم تبقى دمعة وأحدة ولم تذرفها ، كنت أخاف أن يصيبها أي مكروه من شدة حزنها ،لقد كنت أشعر بأن هنالك أملًا في إيجاده لكن بعد سماعي للحقيقة شعرت بأنه من الصعب أن نعيده إلى المنزل ومن الصعب أن

نعود كما كنّا لإن كمال كان قد إتخذ طريقه منذ فترة طويلة أن يقف في صف صديقه وأن ينظم إلى الحزب المعارض لقد كان قراره نهائيًا لا عودة فيه لكن أمي كانت لا تزال تحمل أملًا في إرجاعه قبل أن يرتكب أي جريمة يندم على فعلها ، كان الوقت قد تأخر فكان علينا الإنتظار حتى الصباح لنبحث عنه ،أما والدي فلم يعد إلى البيت أصبح كثيرًا ما يتأخر في العودة وأحيانًا ينام في الخارج .

أغلقت دفتر مذكراتي فالجرح عميقٌ هذه المرة ما زال المطر متواصلًا حتى إن صوت الرعد يطرق مسامع كل مستيقظ ،قررت التوقف عن تذكرهم إلى هذا الحد فعيناي لم تتوقفا عن إذراف الدموع ،ربما لإنني ما زلت عالقةً في ذلك الوقت ،وربما أنا مجرد شبحٍ على هذه الحياة وأنني وهم فأنا لا أشعر بيومي كيف يمر فيه الوقت وينتهي بين جدران منزلٍ واسع أعيش فيه مع ذكريات أشخاص لم يعودوا موجودين ، أحيانا

يصعب علي أن أكتب على أوراقي أنني متعبة من كوني أستمر بدونهم وأن علي أن أبقى متماسكة وقوية لأبدأ من جديد أن أستعيد قوتي وأن أُضاعفها في داخلي لإكمال مسيرة الحياة مع إتقان الصمت الذي يجعلني أُكمل وبهدوء علاقاتي مع الآخرين محاولةً الهروب من الألم الذي خلق بعد رحيلهم ، نمت على الأريكة على صوت زخات المطر وأستيقظت على ضوء الشمس المتسلل من النافذة نظرت إلى الفوضى التي تعم غرفتي فنهضت وأسرعت في ترتيبها وضعت الكتب على الرف وأرجعت فناجين القهوة إلى المطبخ لقد مضت ليلة كاملة ولم أتوقف بعد عن تذكرهم وبسرعة لبست ثيابي ومعطفي بعد أن إستجممت وتناولت الفطور الموجود على الطاولة كالعادة وذهبت إلى المكتبة التي تبعد عن بيتنا قرابة عشرة أمتار ،صاحبها رجل طيب ومثقف عمره يقارب منتصف الستينات ،أخذت أعد خطواتي وأمشي بهدوء ووقار لكي أشعر بهواء الشتاء البارد وهو يلامس خدودي

ويحرك خصلات شعري ويداعب أنفي ويجعلني أبتسم

وصلت المكتبة نظرت إلى زجاجها من الخارج وعتباتها الممتلئة بماء المطر ثم أدرت ظهري ونظرت إلى الشارع الذي يملاؤه الضجيج من أشخاص وسيارات ومحلاتٍ ثم دخلت المكتبة لأنتقل إلى عالم آخر عالم ظاهره هادئ لكنه بالحقيقة مليئ بالضجيج من الداخل فبمجرد قراءتك لإحدى الكتب يتفهم ما أعنيه ،ضجيجٌ لا يفهمه إلا القارئون وبتمعن ،الطاولات مرتبة ومصفوفة بشكل جميل تناسب كل شخص يعشق الهدوء ،كما أن نوافذها كبيرة ومصنوعة من الزجاج تستطيع من خلالها النظر إلى الخارج ،أحضرت كتابًا عن مفهوم السعادة الحقيقية وبدأت أقلب صفحاته لأقرأهُ ،أجد نفسي في كل مرة أقرأ كتابا أضيع فيه ربما لإنها تلامس شيء ما في أعماقي يصعُب علي التعبير عنه ،الصمت يملاؤ المكان لا تسمع سوى صوت قلب الصفحات ،الأشخاص المعتادون على القدوم هنا تظهر على ملامحهم الهدوء والوقار ،تجدهم يمتلكون أناقة

حتى في إختيار الكتب حتى أنهم حريصون على الجلوس على طاولاتهم دون تحريك الكراسي بشكل مزعج ،يهتمون بأدق التفاصيل التي قد تزعج الآخرين ،أتذكر السبت الماضي أنه كان بمقابلي رجل عجوز يرتدي نظارته ويمسك بالجريدة مندمجٌ بقراءتها لا أعلم بالضبط كيف وقع قلمه على الأرض فقام لإلتقاطه فحركك كرسيه بطريقة لفتت إنتباه الموجودين فترك كل شخص كتابه ونظر إليّه لقد عرقل لحظة الهدوء التي يمر بها الجميع إعتذر منهم بصوت منخفض وبعدها جلس وأكمل قراءته لقد كان وجهه محمرًا من الخجل حريصًا على أن لا يزعج أحد ، كم هم جميلون حريصون على أنهم بداخل عالم جميل ،عالم من الهدوء ،أعتدت منذ فترة قصيرة على أن أترك إحدى كتاباتي قبل أن أُغادر المكتبة لذلك قررت أن أكتب عن الحياة وكيف أنها تتشابه مع القطارات وكيف أن الأشخاص اللذين رحلوا لا يعودون وكيف أن كل شيء يمضي ويتغير من وقت إلى آخر ،مضت أكثر من ثلاث

ساعات ولم أشعر بالوقت كيف مضى نظرت لمن حولي كان الكثيرون قد غادروا طويت الورقة وتركتها على الطاولة وخرجت من المكتبة ،كان الهواء بارد يحرك إيشاربي ويجعل معطفي يتطاير للخلف أُمسك كتابا بيدي اليمنى إستعرته من المكتبة وأضع يدي اليسرى في جيب المعطف فقد إزرق لونها من البرد ،الكثير من الأشياء تتغير بسرعة فقد كان هنالك على عتبة محلٍ لبيع الأحذية طفلٌ لم يتجاوز العشر سنوات يحمل علب الكبريت ويبيع المارة بينما كان على يميني رجل عجوز يبيع الكعك وكان هنالك العديد من السيارات التي تقف على يسار الرصيف ولم تعد موجودة الآن ،الأحاديث بداخلي تتوالد بسرعة مع كل خطوة أخطوها وقفت عند محلٍ لبيع العطور أخذت أنظر إليّه من خلال بابه الزجاجي لفت إنتباهي وجود رجل في الداخل يرتدي قبعة سوداء ومعطف أسود لا أكاد أرى وجهه فهو يديره للبائع ذكرتني هيئته بذلك الرجل الذي وقعت منه محفظته ،دخلت المحل دون تردد دافع ما بداخلي

جعلني أدخل ليس لشراء العطر إنما كان شعورٌ غريب لم أُميزه في تلك اللحظة

رحبت بي البائعة وبإبتسامةٍ سألتني ماذا تريدين أن تشتري يوجد هنا كل أنواع العطور وأردفت قائلة هنالك عطور فرنسية جديدة نظرت إليّها وأبتسمت وقلت لها أريد عطر الياسمين كنت أنظر إلى الرجل لكنني لم أتمكن من رؤية وجهه فهو يقف عند العطور الرجالية جلست على الكرسي لحين إنتهاءها من تحضيره وضعت الكتاب على الطاولة وفتحتُ حقيبتي لأدفع البائعة وما إن رفعت رأسي وجدته يغادر المحل أعطيتها المال وبادلتني بإبتسامة وقالت خذي العطر وجربيه وأردفت قائلة تستطيعين المجئ إلى هنا مرة أخرى فهنالك عطور أجمل ابتسمت لها وقلت سآتي بالتأكيد ،خرجت مسرعةً من المحل لآرى وجهه نظرت على يميني ولم آراه نظرت على يساري وجدته يرحل كان معطفى يتطاير من الخلف ودخان سجائره ما زالت

مشتعلة ولم يطفئها بعد ، نظرت إليّه ثم أكملت طريقي عائدة إلى المنزل وجدت والدي يركن سيارته بالقرب من المنزل وقفت قليلا لأنتظرهُ نزل من سيارته وألقى علي التحية بادلته بها سرنا جنبًا إلى جنب وسألني كيف كان يومك نظرت إلى عيناه التي تنظر إلى الأمام وقلت له: جيدة وبدأت أخبره أنني قرأت كتابًا عن السعادة وبأنني تركت إحدى كتاباتي إستغرب من أنني أكتب فوقف ونظر لي ثم سألني أتكتبين ؟ إبتسمت وقلت له أجل ،أحاول ذلك أكمل طريقه وقال لي إن القراءة غذاءٌ للروح ،شعرت بالفرح والسعادة التي تغمرني وجدته ولأول مرة منذ سنوات يشجعني على شيء لأقوم به ،دخلنا المنزل وأشعلنا الأنوار فيه ثم دخل كلّ منّا إلى غرفته ليبدل ملابسه ،لم أشعر بالبرد كما هي العادة ،فسعادتي كبيرة للغاية ،جلستُ على الأريكة وأخرجت دفتر مذكراتي من الحقيبة ووضعت الكتاب على الرف ثم بدلت ملابسي ورفعت شعري المنسدل وذهبت إلى المطبخ وضعت فنجان القهوة

على الطاولة وبدأت بتنظيف الأواني أما والدي فكان يقف بالقرب مني يقطع الخضار ويغسلها ليحضر الطعام ،جلست على الكرسي ووضعت رأسي على حافة الطاولة تأملت والدي وهو يعد الطعام، بينما عادت بي ذاكرتي إلى ذلك اليوم الذي إستيقظت فيه صباحًا كانت أمي تُعد طعام الفطور لأجل ضيفتنا مريم صديقة أخي كمال أما أنا فأسرعت في ترتيب المنزل وبعدها أخذت دوشاً خفيفاً وبدلت ملابسي بسرعة ووقفت عند باب المطبخ أنتظر إنتهاءهن من الأكل ولم آكل شيء فشهيتي كانت معدومة كان الزمن متوقف بالنسبة لي ولا يمر ،إنتظارٌ طويل لمعرفة ما سيخبأه لنا المستقبل ،ذهبنا إلى الموقف بخطوات سريعة ركبنا سيارة أجرة للذهاب إلى منزل علي كان الإنتقال من مدينتنا إلى منزله أمرٌ صعب بسبب التدقيقات التي يقوم بها رجال الأمن نظراً للمظاهرات التي تعم البلاد ،وصلنا الحي الذي يعيش فيه علي وقت الظهيرة نزلنا من السيارة لنبدأ البحث عن منزله ،المنازل قديمة وشوارعها غير

ممهدة يكسوها الفقر كما أن الأطفال الذين يلعبون بزقاقها يلبسون ثيابًا بالية وممزقة كما أن وجوههم المتلطخة بالطين تعبر عن مدى تدني الحالة المعيشية والصحية ،كان العرق يتصبب وجوهنا من أشعة الشمس الحارة ولم يبقى أحد من المارة إلا وقد أوقفناه لنسأل عن منزل علي حتى أخبرنا شاب في العشرينات ذو بشرة سمراء نحيل الجسم عن منزل علي وأنه يسكن على بعدٍ منّا بشارعٍ سرنا عبر الزقاق لنصل إليّه وجدنا الباب أزرق غامق كما وصفه لنا ذلك الشاب طرقت أمي الباب ولم يفتح أحد ،طرقتُ الباب بعدها وبدون فائدة يبدو أنه لا يوجد أحد وقفنا جميعنا على أمل أن يفتح لنا أحدهم الباب أن لا نعود خائبين بعد أن قطعنا كل هذه المسافات ،حينها إقترحت مريم على أمي أن نطرُق الباب المقابل لهم فقالت أمي نعم لنطرقه ربما يعرف الجيران عنهم شيئًا طَرقت مريم الباب ففتحت لنا سيدة كبيرة في العمر فقالت بصوت مبحوح تفضلوا من تُريدون قالت أمي نحن نبحث عن صاحب

المنزل المقابل لكِ فسألت العجوز منزل من ؟ فردت أمي منزل علي تغير ملامحها وبدا عليها التوتر وقالت بصوت مرتفع لا أعرفه وأغلقت الباب في وجهنا ،تبادلنا نظرات تعجبٍ ثم أدرنا ظهرنا للرحيل لكنني قلت حينها لأمي إنها تخبئ شيء وتخفيه فإرتباكها يعني ذلك ،شَعرت أمي بتعبٍ شديد قد أصابها فأمسكت مريم بيداها وأجلستها على عتبة بيت المرأة العجوز وبقينا نخمن سبب عدم إخبارها لنا عن علي ،لم أتحمل الإنتظار أكثر فطرقت منزلها مرة أخرى ففتحت لنا وقالت بصوت عالٍ ألم أخبركم أني لا أعرفه لماذا عُدتم ؟ فأجابتها مريم نحن بأمس الحاجة لنعرف مكانه ،أشرت بيدي على أمي وقلتُ لها يا سيدتي لن تتحمل هذه الأم معاناة أن يرحل عنها ابنها ثم سكت شعرتُ بأنها بدأت تتعاطف معنا فرغرغت عينيها وفتحت الباب وقالت أدخلو دخلنا خلفها ،بيت قديم وفراشه بالي ،معلقٌ على جدرانه صور رجلٌ في الجيش جلسنا على الفراش بينما دخلت هي إلى الغرفة ،أشرتُ إلى

صور الرجل وقلت لهن ربما يكون إبنها أو أحدٌ تعرفه فقالت مريم هذا واضح خرجت المرأة العجوز من الغرفة فتوقفنا عن الحديث كانت قد أحضرت حقيبة وجلست بجوار أمي فقالت وهي ترتجف يداها لماذا تبحثين عن علي ؟ فأجابتها إنه صديق كمال إبني الوحيد فهو قد غادر المنزل ولم يَعد ونحن نبحث عنه ،عادت المرأة العجوز تسأل أمي أتعرفين من هو علي ؟ نظرتُ إلى أمي مستغربة من سؤالها فأمي قد أجابتها أنه صديق كمال فلماذا تسألها مرةً أُخرى فردت أمي وقالت لها إنه صديق ابني كمال لم تقْل المرأة العجوز كلمة وأحدة لكنها أخرجت من الحقيبة صور لرجل في الجيش وقربتها على أمي وقالت لها أنظري جيداً هذا الرجل هو والد علي وسكتت وكأن ذاكرتها بدأت تعود إلى أعوام مضت لقد كانت الدموع تملاؤ عينيها بينما يداها ترتجفان من الماضي وبدأت تخبرنا عنهم قالت لنا إن إبني غسان هو الإبن الوحيد لي وقد كانت تجمعه صداقة قوية مع أحمد وهو والد علي لقد درسا

معاً في الكلية والتحقا بخدمة الجيش معاً لقد كان ابني غسان كثيراً ما يطمحُ بأن يصبح وضعه المادي أفضل بكثيرٍ مما كنّا عليه ،لقد أخبرني يوماً بأنه سيتم ترقيته وبدأ بعدها بشراء أثاثٍ جديد للإنتقال إلى منزل آخر ،لقد كان وضعنا المادي متدني لكنّا كنّا سعيدين لقد كنت أسأله دوماً إن كان هنالك سبب لترقيته لكنه لم يُجيب عن اسألتي وكان دائم الغضب من سؤالي وذات يوم جاء صديقه أحمد ولم يكن غسان في البيت فأخبرني عنه أمور لم أصدقها أخبرني بأنه يخون الوطن ويعمل لصالح دولٍ أخرى وبأن علينا إيقافه لم أستمع لكلامه وقتها وطردته من المنزل ،لأعرف بعدها بأن كلامه صحيح لكن كان ذلك في وقتٍ متأخر لإنه عندما علم غسان بذلك دبّر له مكيدة بأن يوقع به ويلبسه تهمة التجسس على الدولة فقاموا بإعدامه حينها تاركاً خلفه زوجة وطفلين ولم يمر وقت طويل حتى تم معرفة بأن غسان خائن للوطن وتم إعدامه لا أعلم كيف فعل ذلك بنفسه وبصديق عمره وكيف هان

عليه أن يخون الوطن الذي يعيش فيه ،تغيرت حياة عائلة بأكملها فقد توجب على زوجة أحمد أن تربي أبناءها لوحدها وتوجب عليّ أن أعيش بحسرةٍ على فقدانهم فقد كان أحمد بمثابة ابني غسان ،لقد كَبُرَ ابناؤه الأثنين منتصر وعلي وكان هدفهم الإنتقام لوالدهم الذي لم يكن خائناً ،لقد أرادوا الإنتقام من العار الذي ألحقته بهم الدولة فقبل عامين تم البث عن العملية التفجيرية التي قام بها منتصر عند المقر الحكومي وتوفي العديد من رجال الأمن والشرطة كما كان هنالك أشخاص مدنيون ،دبَّ الرُعب قلوبنا وذُعِرنا مما كانت تحكيه لنا عن ماضيهم فقد عرفنا وقتها غاية علي وهو إلحاق الضرر بالدولة التي أتهمت والده بالخيانه ،لكن المرأة العجوز قالت لأمي بإطمئنان لا تخافي سيأتي إبنك سيودعك قبل أن يفعل أي شيء ،كان كلامها بمثابة أن كمال لن يعود وبأنه إختار طريقاً مع صديقه علي ولن يتراجع مهما حدث استأذنت منّا مريم وعادت إلى منزلها بينما ركبنا

السيارة لنعود إلى المنزل حاملين في قوبنا خوفٌ لم يسبق له من قبل ،وخوف وقلق لما سيحدث ،شعرت بأن علي أن أتوقع الأسوء بأن لا أتأمل مجدداً بعودته ،وصلنا المنزل ولم نجد والدي لنخبره عما حدث معنا

فقد كان مهتماً بعمله وكيف عليه إيقاف التوتر والشغب الذي يعم المدن ،ولم يكن مهتماً بعودة كمال ،انتظرنا صباح الغد لنذهب إلى الجامعة لنبحث عنه ،كانت الإحتجاجات مستمرة كما أن الشباب يتجمعون ،بدأت صوت مطالبهم تعلو والجميع يهتف بإسقاط

الحكومة وقراراتها ،كل وأحد يعلو صوته ليعيش الشعب ،لتعيش الطبقة التي عُدمت فيها الحياة بسبب الإرتفاع المستمر للضرائب ،ما جعلهم يخرجون من بيوتهم ويغلقون محلاتهم وترك عملهم هو ليعيش الجميع حياة كريمة ،حياة لا فقر فيها ،الجميع هنا موجودون ليس كرهاً للعاملين في الدولة إنما كرهاً

لقراراتهم التي جعلت الحياة أصعب ،جعلتهم لا يستطيعون تلبية أقل الإحتجاجات لأسرهم ،بدأ مرور

الجيش وبدأت المظاهرات تشتد إلا أن حدثت اشتباكات بين المتظاهرين والجيش ،بدأت أعمال شغب تصدر من بعض الأفراد فأصبح الوضع يزداد سوءاً لقد كنت أمسك بيدي أمي واتثبت فيها فقد كان الخوف يملاؤ قلبي من تصاعد الوضع سوءا وإشتباك الجيش بالأفراد لم نكن نرى كمال بينهم لكننا عرفنا فيما بعد أنه كان أحد القادة للحزب المعارض للدولة ،بدأ وقتها الجيش بحبس المعارضين وإدخالهم السجون ،عمت الفوضى والإشتباكات كان لا بد للعساكر أن يستخدموا الأسلحة لإعادة الأمور إلى وضعها ،كنت أختبئ خلف أمي من الخوف أتثبت بيداها وأتوسلها أن نعود إلى المنزل ولم تستمع لي حتى بدأوا بإطلاق النار في الجو لإبعاد الأفراد فلم تتحمل أمي تدافعِهم فوقعت على الأرض مُغمىً عليها ،الجميع في حالة صراع وإشتباك مع الجيش يتعاهدون على الموت من أجل مطالبهم بينما أرفع رأس أمي عن الأرض منتظرتاً سيارة الإسعاف لتنقلنا إلى المستشفى ،كانت طلقات الرصاص

تصدع في السماء كما أن مطالب الشباب كانت تعلو أكثر ،لم يكن يبدو على وجوههم الخوف فالفقر الذي عاشوه كان أكثر رُعباً من طلقات الرصاص نفسُها ،نقلتنا سيارة الإسعاف إلى مستشفى حكومي كان التدقيق على المُصابين شيء مُرعب للغاية ،أدخلوا أُمي إلى غرفة الطوارئ بينما بقيت جالسة على المِقعد المقابل للغرفة ،كان صفارات الإنذار تذوي في أرجاء المستشفى ،الحالات الطارئة تزداد كما أن هنالك الكثير ممن فقد حياته ،أخذتُ أمشي في الممرات كان هنالك ضابط في الجيش ينام على السرير المتنقل ويحركه الأطباء بسرعة إلى غرفة العمليات مرّوا من جانبي فبادلته النظرات كانت عيونه تُقابل عيناي بالرغم من أنها شبه مغمضة كان يأن من الوجع بقيت أنظر إليّه إرتخت يداه فوقعت منه قلادة على الأرض إنحنيت لإلتقاطها بينما أدخلوه غرفة العمليات وقفت عند باب الغرفة أحمل بيدي قلادته أرفع يدي إلى السماء داعية له بالشفاء ،كنت أسير ذهاباً وإياباً إنتظاراً أن يخرج

الطبيب ويطمئنني عن حاله ،لا أعلم يا سيدي من تكون لكنني شعرت بأن علي أن أبقى لأعطيك القلادة ،لقد كان متمسكاً بها بقوة وكأنها أغلى ما يملك لم يفلتها من يده حتى غاب عن وعيه ،ولم يمر أحد ليسأل عنه يبدو أن أقربائه لا يعلمون بوضعه أو ربما أنه من مدينة أخرى ،عدت إلى أمي لأطمئن عليها دخلت غرفتها فوجدت الطبيب عندها كان يُشخص وضعها أخبرني أنها بخير لكنها ستفيق بعد ساعتين من مفعول الدواء ،بقيت إلى جِوارها ألمس يداها وأُقبل رأسها ،ثم تركتها وعدت إلى غرفة ذلك الضابط إنتظرت إنتهاء عمليته خرج الأطباء من الغرفة قال الطبيب الذي أجرى العملية بأنها كانت عمليه صعبه لكنه كان صلب وقوي إستطاع تجاوزها وأردف قائلا أنني أستطيع رؤيته عمّا قريب تشكرت الطبيب وجلست على المِقعد لست قريبته لكنهم ظنوا ذلك بسبب إنتظاري له في الخارج ،لم أتجرأ على دخول الغرفة خشية أن أزعجه وهو نائم مرت قرابة خمسة عشر

دقيقة أتت ممرضة لتطمئن عليه حينها دخلت برفقتها بدأت تقوم بعملها تقيس ضغطه ونبضات قلبه بينما كان يحاول فتح عيناه نظرت إليّه رآني وأغمض عيناه خرجت الممرضة بينما جلست على الكرسي وضعت القلادة في يده وقلت له يا سيدي هذه قلادتك وقعت منك على الأرض لم يفتح عيناه كنت أشعر بأنين وجعه لكنه بالرغم من ذلك أمسك القلادة قمت عن الكرسي لأعود إلى أمي وقبل مغادرتي غرفته أدرت ظهري لأنظر إليّه كان يُحاول فتح عيناه سمعته يهمس بشيء لكنني لم أفهم ترددت بالعودة إليّه رجعت عند أمي كانت قد إستيقظت وأخبرني الطبيب أننا نستطيع الخروج أمسكت بيدها وجعلتها تتكأ علي ،ممرنا بمناظر مخيفة للغاية مملوءة بالمُصابين مختلطةٍ بصرخات الأمهات التي تتعالى فقد مات الكثير من الضباط ومن أفراد الشعب بسبب الإشتباكات ،وصلنا الباب لنلتقي بفتاة شابة عشرينية العمر تصرخ وبشدة تشهق روحها من البكاء يحاولون تهدئتها لكنها لم

تهدأ فقد توفي خطيبها في عملية التفجير التي حدثت ليلة الأمس كان لا يزال الكثير من المصابين عند الباب تنقلهم سيارات الإسعاف وصلنا المنزل وكان الظلام قد حلّ لم يعد كمال ولا حتى والدي المنزل مُعتم ،أشعلت الضوء فيه ثم استلقيت على الأريكة ولم أشعر كيف نمت من التعب وكيف مضت الليلة بأكملها ،إستيقظت في الصباح على صوت أقدام أمي وهي تنظف المنزل ،لقد كان صباحاً مختلفٍ عن أي صباح يحمل الكثير من الحزن بعد أن بثت الحكومة عبر الراديو أسماء الأشخاص اللذين سيتم إعدامهم واللذين تم تحميلهم كافة المسؤولية عمّا حدث من تفجيرات وزعزعة لأمن وإستقرار الوطن ،جلستُ حينها بالقرب من امي التي لم تكف عن الصراخ والبكاء على كمال الذي كان من بينهم ،أمسكت يداها أحاول مواساتها لكنني لم أستطع ذلك لقد شعرت بشعور غريب وهو أننا وصلنا النهاية أن الأمور باتت واضحة وأن الإحتمالات قد رحلت عنّا في هذا الوضع ،لكن أمي كانت لا تزال متمسكة بأمل

إعادته فدخلت إلى المكتب لتجري إتصالا عبر الهاتف الأرضي مع والدي حاولت مرارا وتكرارا لكنه لم يرد ،جلست على الكرسي من تعب أقدامها وحاولت مرة أخرى حتى رد عليها سألته إن كان يعلم بقرار المحكمة فكان جوابه أنه يعلم بذلك لكنه لن يفعل لأجله أي شيء توسعت عيناي أمي من الصدمة ومن برودة رده ثم تماسكت نفسها وقالت له بصوت عالٍ مليئ بالغضب أتعرف كل ذلك ولا تساعده أليس هو إبنك أيضاً لكنه لم يكترث فقال لها لا يهمني ذلك لقد عبث بأمن الوطن عليه أن يأخذ جزاؤه ثم أغلق الهاتف بعد أن قالت له امي أنت أناني لا تفكر الإ بنفسك ولم يرد إتصلت مرة أخرى ولم يرد ثم ألقت الهاتف على الأرض أمسكته وأرجعته على الطاولة ،لقد كان حبه للوطن أكبر بكثير من حبه لنا ،كان عليه أن يُخفظ حكمه أو أن يساعده لكنه لم يرضى مضى شهر كامل ونحن نبحث عنه من سجن إلى آخر في حين بقي والدي منهمكا بعمله لإيقاف الثورة التي لم تهدأ بعد

،فقد كان قرار الشعب حازما أن لا يعودوا إلى منازلهم
بدون أن يأخذوا حقوقهم بالحياة الكريمة كما أن
الحكومة قد إستمرت بإحتجاز الشباب ،لم نكن نمتلك
أي شخص ليساعدنا في العثور على كمال فكان
الوصول إليّه من أصعب الأمور التي مرت في حياتنا
حتى عثرنا عليه وبالتوسل الشديد لم يسمحوا لنا
برؤيته إلا دقائق معدودة تحدثت معه أمي وحاولت أن
تُطمئِن قلبه ربما سنجد حلا لخروجك من هنا بينما كنت
أتأمل ملامح وجهه التي تشوهت بسبب التعذيب كان
متماسكا يُصر أن يبقى رأسه مرفوعا وأن لا ينحني
ليخبر العالم أنه وإن مات سيكون موتا مُشرفا لأنه لم
يتخلى عن مبادئه ولا عن حقوقه كما أخبر أمي بأنه
حاول أن يمنع علي من القيام بعملية التفجيرية لكنه لم
يستطع وأنه لا علاقة له به وأنه فقط أراد أن يعيش
الشعب حياة كريمة ،إنتهت زيارتنا وودعته أنا وأمي
بالدموع ثم خرجنا من السجن بعد مرورنا بقسم
التفتيش كانت أمي قد فقدت توازنها فأتكأت علي لم

نستطع الوقوف أكثر فرجال الأمن موزعون في كل مكان وانتابنا الخوف أن يقوموا بإحتجازنا ،عدنا إلى المنزل ولم يكن بوسعنا سوى الدعاء له ثم أشعلنا الراديو وتناولنا القليل من الخبز والجبن الذي قد يَبُس قليلا ، وفي صباح اليوم التالي عدنا إلى السجن مرة أخرى لنرى كمال لكنهم أخبرونا أنهم قاموا بنقل جميع المساجين إلى سجن آخر فقد أصدرت المحكمة يوم تنفيذ الاعدام بحقهم ،لم نكن نعرف أننا قد رأيناه بالأمس لآخر مرة ولم نكن نعرف أنه كان الوداع الأخير وفي الخامس والعشرين من مايو تم تنفيذ الحكم لقد تابعنا ذلك عن طريق الجريدة لم يُخمد ذلك الثورة ولم يرمي الخوف في قلوب الشعب بل زادهم إيماناً أنهم سيموتون من أجل مطالبهم لم تتوقف الصحف ولا الجرائد عن الكتابة عن كمال ودوره في الحراك الشعبي السلمي ،لقد كان يؤمن بأنه لا بد للشعب أن يعيش حياة كريمة لكنه رحل ضحية الفتنة التي حدثت ضحية لجريمة لم يرتكبها ،بينما أمضت أمي أيامها

بصمت مخيف ،لقد أصبح كلامها يقل يومآ بعد يوم أما أنا فقد كبرت فجأة أستيقظ صباحا أطمئن على أمي ومن ثم أبدأ ترتيب المنزل ، مضت أربعة شهور وبدأت الأوضاع تعود إلى عهدها عاد والدي إليّنا بعد غياب طويل لقد كان يطمئن علينا عن طريق الهاتف ويرسل المال عن طريق البريد لم يكن ينقصني شيء سوى أن يكون معنا ،فقد كان الحزن يحتل الجزء الأكبر من يومياتي ،بدأ فصل الخريف أصبحت أوراق الأشجار تتساقط كما أن الغبار بدأ يجتاح المنزل كنت أعاني كثيرا في تنظيفه بسبب ما أعانيه أنا وأمي من الربو لقد كنت أخاف عليها أكثر من خوفي على نفسي ،أجلس بالقرب منها أطمئن عليها أرضى بوجودها معي لا أكثر بالرغم من أنني حزينة من الداخل لكنني أحاول أن أخفي هذا الكم الهائل من السواد الذي يسكنني من أجلها ،من أجل أن تكون بخير يوماً ما ،لإني أؤمن دائما بأن الأيام كفيلة بأن تُنسينا مرارة الظروف .استيقظت على صوت والدي وهو يقف

بالقرب مني ليوقظني لا أعلم كيف غفوت قليلا ،كان قد أنهى إحضار الطعام ،الشراب ساخن جدا يُشعرني بالدفئ ،نظر إليّ والدي مستغرباً ثم قال لقد غفوتِ قليلا ثم أردف قائلا هل أنتِ مُتعبة هززت رأسي يميناً ويساراً وقلت لا لست مُتعبة أما زال المطر متواصلا!؟

فأجابني وهو ينظر إلى النافذة ثم إليّ نعم متواصلا وبشدة ،شعرت بأن الغيوم تحمل ذاكرة كذاكرتي تتشكل على هيئة أمطار تُذرف وبغزارة يبدو أننا نتشابه كثيرا أيتها الغيوم ، تناولت طعامي وأنتظرت والدي لينهي طعامه بعد ،شعرت برغبة في تناول المزيد من الطعام كغير العادة لكن اليوم كان مختلفا فمنذ ذهابي إلى المكتبة وبدايتي في الكتابة شعرت بالتغير في حياتي كما أنني أصبحت أنظر إلى تصرفات والدي من زاوية أخرى لا بل بدأت أشعر بحبه لي وحرصه على سعادتي حتى وإن لم يكن واضحاً بشكل كافٍ ،عدت إلى غرفتي بعد أن أنهيت تنظيف المطبخ بالكامل ،عالقة بين الكتب أدرس بإجتهاد لأنسى الكثير مما أفكر به ثم ليأخذني

التعب وأنام ،أنتظر قدوم الإختبارات وإنتهاءها على خير .مرّ أسبوع كامل كأنه يوم وأحد جهزت نفسي وذهبت إلى المكتبة دخلت إليّها ولم أنظر إلى الموجودين كالعادة ولم أنتبه على المارة في الخارج حتى ،تناولت رواية وبدأت بقراءتها أصبحت أجد نفسي بين السطور أتأثر كثيرا ابتسم عندما تمر الشخصيات بلحظات جميلة وأحزن عندما تكون السطور مليئة بالدموع ،جاء صاحب المكتبة نحوي فرفعت رأسي تتدريجيا لتقابله عيناي إبتسم لي وقال هذه الرسالة لكِ تغيرت ملامح وجهي بالكامل أغلقت الرواية ووضعتها جانبا حالة تعجب أصابتني لي أنا مِن مَن؟ أجابني لا أعلم أنا أجمع الكتابات كل يوم فوجدت هذه الرسالة عليها ملاحظة أن أُعطيكِ إياها قلت له بخجل وبإبتسامة لطيفة شكرا لك إنتظرت ذهابه وفتحت الرسالة وجدت مكتوباً عليها إن الحياة أشبه بالقطارات يا عزيزتي لكن دائماً هنالك شيء قادم يحمل لنا الكثير من السعادة ،شيء جميل يستحق أن ننتظره

ويستحق أن نتعب من أجله ،تحولت الهالة السوداء في وجهي إلى إبتسامة ،أغلقت الرسالة ووضعتها في الحقيبة لقد قرأ شخص ما الرسالة التي تركتها ،عدت لأكمل قراءتي حين توقفت وأحتسي فنجان قهوتي التي تستدرجني لأقرأ دون تمعن لتعود بي ذاكرتي إلى رنت الهاتف كنت أجلس بجوار أمي ثم قمت بسرعة لأرد على الهاتف كان المتصل هو والدي سألني كيف حالك فأجبته بخير أخفظت صوتي وقلت له وأنت فقال بخير ثم سكت قربت الهاتف من أذني وقلت أبي هل تسمعني ليس هنالك صوت حينها قال بتردد وأمك فقلت ما بِها؟!

فقال كيف حالها نظرت إلى أمي وقلت له بصوت يملاؤه الإنكسار بخير ،سألته متى ستعود فقال بعد يومين إن أنهى ترتيب عمله ،أنهيت مكالمتي معه وأخبرت أمي بأنه سيأتي بعد يومين إن تمكن من ذلك غضبت كثيرا ولم تفرح وقالت لي أكرهه ،أكرهه لقد

خسرنا ابننا الوحيد بسببه إنني حقاً أكرهه ولا أُطيق سماع إسمه أمسكت يداها وتثبت بهما وقلت لها مثلما تريدين لن أتحدث عنه ،مرّ يومين وأنا أنتظر قدومه بفارغ الصبر كان الليل يمر وأنا لا أستطيع النوم أفكر فيما سيحدث ،كنت أشعر بأن عودته أشبه بالعاصفة التي تقتلع كل شيء من مكانه .سمعت طرقات الباب تُطرق وبقوة فتحت الباب فقد كان والدي ألقى التحية علي دون أن يعانقني خلع حذاؤه ودخل سرت خلفه سألني دون أن يلتفت أين أمك فقلت مشيرة إليّ المطبخ هناك ،حملت حقائبه وأدخلتها إلى الغرفة وضعتها بجانب السرير سمعت صوتهم يعلو فذهبت إلى المطبخ فوجدتهم يتشاجران كانت أمي تُلقى اللوم عليه بكل ما حصل معنا بينما والدي يقول لها إهدئي قليلا وكفي عن هذا الكلام لكنها إزدادت غضبا فقالت أنت تريدني أن أسكت أنت لا تريد أن أُلقي اللوم عليك ثم توقفت بسبب بكاؤها الذي جعلها تُصدر فقط أنين دون كلام تضرب بيدها على صدره وتقول له إرحل من هنا ثم

بصوت منخفض إرحل أزاح والدي يداها عنه وذهب إلى غرفته وأغلق الباب على نفسه ،بينما جلست تُكمل بكاؤها لقد تغير كل شيء بعدها ،فأمي لم تكف عن لومه في الثانية آلاف المرات ،حينها قرر والدي أن يرحل ويتركنا ،جلسنا جميعا في غرفة المعيشة أخرج المال من حقيبته ووضعه على الطاولة ،ثم أشبك يداه بعضهما البعض وأخذ يتأمل زوايا الغرفة ،نظرت إلى الصمت الذي يُخيم المكان ،نظر والدي إلى أمي التي تجلس مقابله وتنظر إلى الأرض وأحيانا إلى تلك الصورة المعلقة على الحائط كي لا ترى وجه والدي ،هز والدي برأسه وقضم شفاه ثم قال لها ألا تريد معرفة إلى أين سأذهب ؟ أكملت نظراتها إلى الصورة ثم نظرت إليّه وبإبتسامة حاقدة قالت له لتذهب إلى الجحيم لا يهمني ذلك ، سكت ولم يرد عليها إستجمع كل قِواه ليقف مشى نحوي وقَبّلَ رأسي نظرت إليّه كانت عيناه ترغرغان من الدموع ،مشيت خلفه نحو الباب أخذ حقيبته من يدي أمسكت بيده لكنها قال لي

سأرحل إن كان ذلك لراحة أمك ،إستجمعت قواي كي لا أبكي أغلقت الباب وجلست خلفه على الأرض أحمل بين أضلعي غصة لا تنتهي تجعلني أبكي وبحرقة ،لن أنسى ذلك اليوم الذي رحلت فيه عنا ،فهو ما زال موجودا في ذاكرتي .

تركت فنجان قهوتي وأمسكت القلم لأرد على ذلك الرجل صاحب الرسالة فكتبت له لقد قرأت كلماتك يا سيدي إنها بمثابة أملٍ جميل لي لا أعلم كيف علي أن أكون بهذا التفاؤل والحياة لم تعطيني شيئاً جميلا أيعقل أن يكون هنالك شيء جميل نستحق أن ننتظره وكيف لي أن أكون بخير وأنا ما زلت أعيش بين ذكرياتهم ،وضعت الرسالة على أمل أن يقرأها ،كنت بحاجة إلى أن يفهم أحد ما أشعر به أن آخذ أملا ولو بالقليل لأستمر بالحياة بطريقة ليست جميلة لكنها على الأقل تُريحني ولو بالقليل ،تركت الرسالة ثم ذهبت عائدة إلى المنزل أسير في الطرقات أعد خطوات عودتي خطوة

خطوة وقفت عند بائع الكعك لأشتري منه كان منظره لذيذ يبدو أنه ساخن أيضا كان البائع يرتدي نظارة تنزل عليها قطرات المطر فيمسحها بين الحين والآخر لتضح الرؤية تناولت الكعك فابتسم لي ثم ابتسمت له ورحلت ،يبيع الكعك ليعيش ،يقف تحت المطر ولا ينسى أن يبتسم في وجه المارة كم هو شخص لطيف ومقبل على الحياة ،تناولت الكعك وعند وصولي للشجرة لم أنسى تفتيت ما تبقى معي للعصافير وما إن إبتعدت بخطوات وقع مني قلمي على الأرض فأنحنيت لإلتقاطه كانت هنالك سيارة مسرعة تسير بإتجاهي ولم أنتبه إلا على ذلك الرجل الذي آمسك بي ورفعني عن الأرض شعرت بأن معطفه تلاصق بي قال لي إنتبهي على نفسك ورحل ،كان الخوف يسيطر علي إزدادت نبضات قلبي وشعرت بإرتعاش في جسمي ،لو لم يكن ذلك الرجل موجوداً لكنت الآن في المستشفى أو في عداد الموتى بسبب تهور ذلك السائق ،أخذت نفساً عميقا وبدأت أستفيق من الوقف رنت كلمة ذلك الرجل

في أذني إنتبهي على نفسك أخذت أنظر حولي لأشكره لكنني لم أتمكن من ذلك فلم أرى سوى سيارات مسرعة والقليل من المارة وزخات الأمطار رحل قبل أن أشكره ،وصلت المنزل فكانت قد وصلتني رسالة من البريد ،أمسكتها بيدي ودخلت ،خلعت معطفي وفتحت الرسالة كانت عبارة عن منحة دراسية للإلتحاق بكلية الآداب والفنون تراقص قلبي من الفرح وبدأت أحلق عالياً من الفرح لقد تم قبولي في الكلية يا لها من سعادة كبيرة تغمرني ،شعرت بأنني سعيدة ولأول مرة لقد إجتهدت كثيراً في دراستي لأجل تحقيق هذا الحلم ،إنتظرت عودة والدي لأخبره بذلك فقد تأخر كثيراً ولم يأتي كعادته بقيت أسير في ممر المنزل ذهاباً وإياباً تغمرني السعادة أفكر كيف ستكون الكلية ومن هم أصدقائي وماذا ينتظرني ؟! حتى جاء والدي ذهبت إليّه كان الباب مفتوحاً إقتربت لأرى كان هنالك رجل غريب لا أعرفه يُنزل الحقائب من السيارة ويضعها عند باب المنزل ،استغربت من ذلك وسألت والدي

باستغراب ،أبي لمن هذه الحقائب لكنه قال لي. إنتظري قليلا وأغلق الباب وذهب مع الرجل فتحت أحدى الحقائب فكانت ملابس سيدة أثارت إعجابي من هذه ؟ ولماذا جاء والدي بحقائبها ،جلست عند الطاولة أنتظر عودته دخل والدي المنزل فقلت له : أبي ، أبي لمن هذه ومن هذه السيدة فقال لي سأخبرك بكل شيء إقترب مني وأمسك بيدي شعرت بدفئ يداه وهو يريد التحدث إليّ فقال لي إسمعي يا إليّن أنتي ابنة جميلة ورائعة ولقد أصبحت أكثر وعياً من قبل شعرت بأن قوله لي أنتي أصبحت أكثر وعياً تُخيفني كثيراً ولا تُسعدني إنها تُخيفني يا أبي قولك لي هذه الكلمة حدقتُ النظر به وأبعدت يداي عنه وقلت أجل يا أبي أكمل حديثك ثم قال لي وهو ينظر للأسفل ،سأخبرك عزيزتي سأخبرك ،لقد قررت العودة إلى عملي إبتسمت له وقلت هذا جميل يا أبي فقال لي لا يا عزيزتي علي أن أسافر إلى بلدة أخرى ،بدأت دقات قلبي تخفق وبسرعة أفكر بداخلي عن المنحة الدراسية ماذا سيحصل بها

وماذا عن إعتيادي لهذا المنزل صحت قليلا ولم أتكلم بكلمة ظننت أننا سنرحل لكنه أكمل حديثه ليخبرني أنه سينتقل لوحده بينما سأبقى في هذه المدينة وبهذا المنزل لوحدي لكنني قلت له أبي -لا يمكنني البقاء هنا وحيدة ماذا سأفعل من دونك كيف سأكمل حياتي فقال لي تستطيعين أن تكملي ستلتحقين بالكلية ستقفين لوحدك وستأتي في الأسبوع المقبل إمرأة ستساعدك في أمور المنزل وستهتم بك لحين عودتي ،تركته وذهبت إلى غرفتي وأغلقت الباب على نفسي،وانهمرت بالبكاء لقد كنت سعيدة قبل قليل بالمنحة الدراسية لكنني لم أعلم أنك ستتركني يا أبي لقد كُنتُ أخاف رحيلك بعد رحيل أمي أكثر من كل شيء ،لقد كنت أحتاجك أكثر من حاجتي للمال وللدراسة ولأي شيء آخر ،كان وجودك يُشعرني بالأمان بالرغم من قلة إهتمامك ،أغمضتُ عيناي فتخايلت نفسي أعيش في غرفة مُظلمة سوداء أجلس في مُنتصفها

على كرسي أنظر إلى الضوء القادم من بعيد لكنني أبدو وكأنني مُقيدة لا أستطيع أن أخطو خطوة لأرى من ينير تلك العتمة من. بعيد ،تأتيني خيالات أمي ،تُشعرني وكأنني أريد أن أقفز أن أذهب إليّها لقد كان حُزني كبيراً عندما رحلت يا أمي وكأن الدنيا سقطت من عيني لقد تركتنا يا أبي عاماً كاملاً دون أن تترك لنا المال في كل شهر كما العادة ،ولم تعلم عن الديون التي تراكمت علينا ولا عن إحتياجاتنا ،لقد كانت أمي مضطرة للعمل لنحصل على المال كي نسد به جوعنا ،كنت أريد ترك المدرسة لعدم قدرتي على دفع التكاليف ،لكن بالرغم من ذلك كانت تعمل أمي من أجل أن أكمل دراستي لقد وعدتها أن أكمل تعليمي من أجلها ،كنت أريد أن اعوضها عمّا فقدت ،أريد أن أُسعدها أن اجعلها تبتسم مرة أخرى ،لكنني لم أستطع ذلك ،كان حينها الشتاء بارد للغاية والمنزل خالي من الدفئ أصيبت حينها أمي بالحمى الشديدة ،ذهبت إلى المدرسة لأطلب الإذن كي أبقى بجانبها سرت في

الطرقات تحت أمطار غزيرة وشوارع مُكتظة بالسكان أُسارع في خطواتي كي أصل بسرعة ،وصلت متأخرة دخلت المنزل وإذ أشعر بإنقباض في دقات قلبي وقشعريرة في جسمي اقتربت من أمي وقبلت يداها ،شعرت بأن يداها باردتان قلت بصوت منخفض يداكي باردتان يا أمي بدأت أفرك بيداها وأتنفس بهما كي يدفئان اعتقد بأنها نائمة لكنها لم تستيقظ بدأت وكأنني أرفض تصديق ذلك الشيء الذي يخطر في بالي فبدأت أُقبلُ رأسها استيقظي ارجوكِ يا أمي لكنها لم تسمعني ماتت وتركت لي برودة هذا العالم ،لقد كان رحيلك أكبر مخاوفي ،فبعدك لم أعد أشعر ولم أعد أشعر بالسعادة الحقيقية أحببتك أكثر من نفسي وتمنيت أن أصبح مثلما تمنيت لي يومآ ،أحبك يا أمي ،استيقظت على صوت غريب في المنزل فقمت من فراشي وفتحت باب الغرفة لأجد والدي برفقة امرأة كبيرة في السن يبدو أنها في الأربعين من عمرها وجهت نظري إلى والدي فقال لي هذه عمتك نيرمين ستمكث معك لحين عودتي

ثم قال لها مشيرا إليّ هذه ابنتي إليّن كما أخبرتك عنها من قبل ابتسمت لها وجلست على الأريكة بينما كان يخبرها عن المنزل وعن الغرفة التي ستمكث بها ،كنت أفكر كيف لي أن أتقبل امرأة غريبة ستعيش معي وكيف علي تقبل رحيل والدي فبعد عودته لي شعرت بالإطمئنان بالرغم من المسافات الكبيرة بيننا ،وبدأت أشعر بالسعادة عندما بدأ يجلس معي ويهتم لدراستي لكنني سأعاني هذه المرة رحيله لكنني سأكون قوية سأكمل دراستي وسأبدأ من جديد ،تناولنا الطعام على المائدة معا كانت العمة نيرمين هي من تضع الصحون وترتبها قلت لها : سأساعدك لكنها أشارت علي أن أجلس وارتاح بدأنا الأكل معا ،ثم أشبك أبي يداه بعضهما البعض ليبدأ الحديث فقال لنا سأسافر في الثامنة صباحا وستبقى عمتك معك سأبعث لكم المال والرسائل بين وقت لآخر ،قلت له أريد الذهاب معك إلى القطار أريد أن أوعدك سكت قليلا ونظر إليّ ثم نظر إلى العمة نيرمين التي أومأت برأسها إلى الأسفل ثم

قال سأسمح لك بذلك وسترافقك العمة نيرمين ،لقد بدأ والدي بإعطاء المسؤولية للعمة نيرمين منذ ذلك الحين .في المساء نمت باكرا لأستيقظ على صوت زقزقة عصفور يقف عند النافذة وكانت رائحة القهوة تنبعث من المطبخ ،نهضت من فراشي وشعرت وكأنني أحلم فالأجواء الصباحية أصبحت جميلة ،قابلتني العمة نيرمين وقالت لي سنفطر معا ثم ستبدلين ملابسك لنودع والدك ثم سنذهب للسوق لشراء بعض الأشياء قلت لها لا أحب التسوق لكنها قالت لي : لن نتأخر ،انتظرت والدي الذي كان يجلس بمكتبه ويجهز أوراقه ومستلزمات عمله لنذهب إلى محطة القطار وهناك أمسك أبي يداي وبقوة وقال لي كوني بخير كما علمتك قوية شامخة لا تنكسرين ،تستطيعين التجاوز مهما حدث معك ،قبلت جبينه ويداه وتركته والدموع تملاؤني بينما كان يوصي العمة علي أن تعتني بي جيدا ،ركبنا السيارة بينما هو ركب القطار أخذ كل منا يبتعد عن الآخر ،أخذت أنظر إلى الشوارع كانت الرؤيا

غير واضحة بالنسبة لي فقد شعرت بالألم الشديد في صدري ،الأحزان لم ترحل كما قلت يا سيدي وليست كالقطار وليس هنالك شيء قادم سيفرحنا ،لا أعتقد بأن كلامك صحيح فأنا أرى بأن كل شيء قادم يخيفني أكثر من قبل ،اشترت العمة نيرمين ما تحتاجه من السوق وعدنا إلى المنزل بعد آن تبللنا من المطر ، وصلنا المنزل كان هنالك طرد بإسمي على الباب أخذته عن الأرض فنظرت إليّ العمة باستغراب من هو المرسل ؟ فقلت لها لا أعلم فتحته وإذ به كتب الآداب التي كنت سأشتريها للكلية ،ربما والدي من أرسلها ،لم يكن هنالك اسم مرسل لكني فتحتها وبدأت أقلب صفحاتها واتمسك بها فهي بمثابة آخر أمل لي للعيش بسعادة في هذا العالم الواسع والبارد ،تركت العمة نيرمين تنقل الأكياس إلى المطبخ بينما دخلت غرفتي وبدأت بكتابة رسالة شكر الى والدي .أبي لقد تركت لي آخر آمل في الحياة إنها الكتب سأتمسك بها وسأنجح وبمعدل عالٍ وسأكون بخير كما وعدتك ،تركت الرسالة

على الطاولة لحين إرسالها له وذهبت إلى العمة نيرمين التي بدأت تسألني عن دراستي وأحلامي وبدأت التحدث معها ثم جلسنا على الأريكة فأخذت تمسح على رأسي وتلعب بخصلات شعري وكأنني إبنتها ،شعرت بعطفها وحنانها وحبها لقد ذكرتني بأمي ،سألتها إن كان لديها عائلة أم لا لكنها هي الأخرى فقدتهم في الحرب وكانت الوحيدة ممن نجت من بينهم فأخذت تعمل في البيوت لتحصل على المأوى ولقمة عيشها لقد كنت أستمع إليّها بإنصات وهي تخبرني عن حياتها استوقفتها بكلامي كيف تقومين بعملك بكل هذه السعادة بالرغم من الحزن الذي مررت به فقالت لي : حينها وهي تبتسم ابتسامة عريضة نحن نعيش كل يوم بنعم لا نستطيع احصاؤها وعلينا أن نكون سعيدين فدائما هنالك شيء جميل يستحق أن ننتظره ،ابتسمت لها وأكملت تفكيري بكلماتها التي تشبه كلمات ذلك الرجل الذي لا أعرفه وهي أن هنالك شيء جميل لا بد أنه سيأتي إليّنا يوماً ما ،بقيت تداعب خصلات شعري

بينما سألتها هل سألتقي يوما ما بشخص لا أعرفه لكنه يعيش بداخلي ،سكتت قليلا وقالت لي ما دام أنه يعيش بداخلك إذن لا بد أنكما ستلتقيان ،ابتسمت من قلبي وتذكرته رغم أنني لم أعرفه إلا قليلا لكنه ترك لي الكثير في داخلي ،وكأنها حياة جديدة على أمل أن نلتقي يوما تحت المطر في ذلك الشارع .أتذكر رسالة تلقيتها منه كان قد كتب لي عزيزتي في ذلك اليوم الماطر حين رأيتك لأول مرة رغم ما تعانية من حساسية من الدخان كانت عيونك تطفئ برودة العالم في داخلي ،لم أعلم يا سيدي أنك كنت تختلس النظر بينما كنت غارقة في التفكير بك وبسجائرك التي تعانقها وكأنها أغلى ما تملك لكنني أريد رؤيتك أريد أن أعرف شكلك ومن تكون ،فأنا لم أنسى المرات التي رأيتك فيها ،أتذكر حين رأيتك داخل المقهى ازدادت دقات قلبي خفقانا مع كل خطوة اخطوها لكن النادل أوقفني لأجلس على المقعد الثاني فأمسكت كتابا وبدأت بقراءته شعرت بك عندما اقتربت مني لتترك رسالتك

وترحل ،لم استطع أن أضع عيناي بك فقد تجمدت بمكاني من التوتر ،فتحت الرسالة بعد أن تأكدت من ذهابك ،كتبت لي الكثير من السطور التي لم أستطع أن أقراؤها دون بكاء لكنني مسحت دموعي بسرعة فأنت تريد مني أن أكون فتاة قوية لا تنكسر تقدم العطاء بكل فرح وسعادة ،قلت لي ستكون موجودا حين أحتاجك وبأن علي المحافظة على دراستي ولم أكن أعلم أن الكتب منك وأن المنحة الدراسية أنت من قدمتها لي كم أريد شكرك ولن أنسى آخر كلماتك لي بأن عيناي أجمل من أن يملاؤها الحزن وأن علي انتظار كل شيء جميل وإنتظارك أنت ربما سنجتمع في أيام أخرى ،في فصل الربيع عندما تتفتح الأزهار ،أغلقت الرسالة وحلمت بذلك اللقاء وبتلك الورود ...

الفصل الثاني

أفكر كثيرا لماذا اختارني صاحب الرسائل لأكون وجهته البريدية، لماذا من بين الآلاف قرر أن يكتب لأجلي ، رغم عدم معرفتي بهويته التي إلى الآن لا تزال مجهولة بالنسبة لي ، لماذا يترك لي الرسائل ويرحل ؟! لماذا يقاسمني مشاعري وأيامي دون أن يكون فيها بشكل فعلي ؟!

إلى الآن لم أعرف السبب خلف ذلك ، لكنني متأكدة بأنني سألتقي به ذات يوم .....

عدت من العطلة الصيفية من السكن الجامعي ، أحمل حقيبتي وأحلامي أنتظر قدوم السائق الذي كلفه والدي بنقلي إلى المنزل ، لم أكن بحاجة إلى الوقوف في محطة القطار في طابور الانتظار .....

الانتظار طويلا قد يفقدك دهشة الوصول وقد يلغي لهفة اللقاء وقد يجلب لك مزيدا من التشويق إن كان ما ننتظره ما يزال مجهولا بالنسبة لنا .

حلّ الصيف مكان الشتاء فنزع منه معطفه كما ينزع اللقاء معطف الانتظار ، نلتحف معطف الانتظار في فصل الشتاء ليعطينا دفئ اللقاء الذي نرسمه في مخيلتنا، لكننا نعتاد الصمت حين ترتطم الخيبات مع بعضها البعض فننسى الكثير من الأشياء الجميلة التي تتساقط من ذاكرتنا ليحل الصمت مكانها ، نحزن حين نفقد من أحببناهم بصدق ولم نجدهم في شتاء حياتنا حتى وإن تواجدوا فإن مكانهم بارد ويرمي ببرودته على قلوبنا ، كما نفرح بحجم السماء حين تهدينا الحياة ما لم نتوقع امتلاكه .

نؤمن بأن الامتلاك والفقدان كلاهما يعطي شعورا متساويا من الفرح والحزن ، لكن الرضى وحده من يرجح كفة السعادة كشجرة متجذرة في الأرض تأبى

الهزيمة والموت تعطي لربيعها فرصة لتثمر، تؤمن بأنها منزلا تُبنى عليه البيوت .

عدت عبر الطريق الذي جئت منه تغيرت أفكاري كثيرا، فكلما مضى وقت تغيرنا كثيرا ، ننضج مع الأيام ، نسرق من العمر لحظات لنسعد به ، نختار أن نكون سعداء أم تعساء، عدت ناضجة عن الأمس احفظ التفاصيل الصغيرة التي تسعدني وألقي بالحزن بعيدا عني ، أفكر بالغد بطريقة تجعلني أحلق بعيدا على أرض تعيش بها الأمنيات والأحلام ، أؤمن بأنني سألتقي ذات يوم بمن يقاسموننني الحب والحزن في آن وأحد .

لا يمكن وصف مدينة كبيرة إنها لندن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عادت كما قبل الحرب ، يحاول

الناس استعادة الحياة بعد الحرب ، يحاولون العيش على أمل لغد أفضل .....

مرّ بجانبنا قطار للجيش كانوا يرتدون الزيّ العسكري والقبعات، سلمت عليهم فبادلني أحدهم التحية ، مات الكثيرين في الحرب لكن الحياة بدورتها يموت شيء ليبدأ شيء آخر .

وصلت المنزل فوجدت العمة نيرمين تفتح ذراعيها لاستقبالي، احتضنتها بقوة فكم اشتقت إليّها، قالت لي : لقد كبرت حقا ؟! فضحكت قائلة : نعم ، كما أن وزني قد زاد قليلا فقالت لي : لكنك أجمل من قبل ...

أخذت حقيبتي من السائق وودعته إلى أن غادر ، خلعت قبعتي ودخلت أتأمل المنزل ، كم اشتقت إليّه ، لقد أصبح جميلا عن السابق فقد بدأت تخبرني العمة نيرمين عن التغييرات التي أحدثتها ، غيرت لون طلاء المنزل ، الأثاث، الستائر ورف الكتب كما جهزت

المطبخ بأدوات جديدة ، لقد أصبح أجمل بكثير عن السابق .

دخلت إلى المطبخ كانت أشعة الشمس تتسلل من النافذة لقد تركته في فصل شتاء بارد ولم يكن مضيئ كما اليوم ، حتى النافذة بقيت مغلقة لفترات طويلة إلى أن جاءت العمة نيرمين فأضافت الكثير من الأمور الجميلة إلى هذا المنزل ، عانقتها كثيرا متشكرة إياها لما فعلته لأجلي، حتى أثناء دراستي كانت تتصل بي كل يوم تسأل عن يومي ، لم تتركني وحيدة في هذا العالم .

قالت لي :بدلي ملابسك وأنا سأجهز المائدة فقلت لها : نعم ، سأبدل ملابسي ، في السابق كنت أول ما أفعله هو الدخول إلى غرفتي وإغلاق الباب على نفسي والبكاء كثيرا حتى النوم ، اليوم أصبحت لا أدخلها إلى لأبدل ملابسي أو للدراسة فقط ، أخذت حقيبة الملابس ودخلت الغرفة ، تفاجأت كثيرا لقد أصبح طلائها اللون

الوردي، الستائر جميلة جدا ، أشعة الشمس تنعكس على السرير ، صوت زقزقة العصافير، نبتة الريحان، لقد اعتقدت بأنها ماتت لكن العمة نيرمين اعتنت بها أيضا ، لم تترك شيء إلا وقد جعلته يبدو أجمل .

تذكرت بقدوم الأيام السعيدة التي بدأت أشعر بها ، بدلت ملابسي وتوجهت إلى المطبخ ، كانت العمة نيرمين تضع الصحون على المائدة، ترتب بها فقد جهزت الدجاج المشوي وشوربة الفطر التي أحبها وطبق الأرز والسلطة ، لقد كان المنظر جميلا ، قالت لي : لقد جهزت لكِ الطعام الذي تحبينه ، فقلت لها : لا أعلم كيف أشكرك على ذلك .

بدأنا نتناول الطعام كان طعمه لذيذا، سألتني عن اللغات التي تعلمتها وعن فصلي الدراسي فقلت لها : لقد كان الدراسة صعبة جدا ، فقالت لي : لا بأس عزيزتي ، لكن ذلك سيفتح لك مجالا للعمل في وكالة أدبية أو معلمة في مدارس خاصة ما رأيك بذلك ؟!

وضعت الشوكة جانبا ونظرت إليّها قائلة لها : لم أفكر بالعمل ، لكنني أريد وضع نفسي في مكان يناسبني ربما أدرس الإنجليزية للطلاب وأردفت قائلا : لم أفكر بالأمر بعد .

فقالت لي : لقد عملت طبيبة في مراكز الإيواء للاجئيين من الحروب ، قلت لها : حقا ؟! فقالت لي : أجل لقد عشت في برلين وكانت لديّ وظيفة أحبها جدا وعائلة لكنني فقدت ذلك بسبب الحرب ، وبعد سفري إلى لندن بطريقة غير شرعية في قوارب الموت تعرضت للسرقة من أحد اللصوص فخسرت أوراقي الثبوتية وكل ما أملكه ولم أتمكن من العمل بعدها أو إكمال حياتي ، حزنت على ما كانت تقوله لي فقد فقدت كل شيء في آن وأحد .

نظرت إليّ قائلة لي : إنها الحياة عزيزتي ، لا تتوقف وأردفت قائلة أكملي طعامك ، قلت لها متسائلة:

أخبريني أكثر عن حياتك فقالت لي : سأخبرك في المساء .

شعرت بأن عليّ معرفة الكثير من الأمور التي لم أعرفها بعد ، كيف يكون المرء بعيدا عن موطنه ومع ذلك يحاول أن يعيش ؟! أن يتمسك بالأمل مهما كان ضئيلا...

اتصلت بوالدي فكان عليّ الاطمئنان عليه أخبرني بأنه سيعود إلى المنزل بعد مدة قصيرة ، شعرت بسعادة كبيرة قلت له : حقا ستعود ؟! فقال لي : أجل سأعود ألم تخبرك العمة نيرمين؟! قلت له : لا ،لم تخبرني سألته عن عمله الدبلوماسي فأخبرني أنه على ما يرام ، قال لي انتظرت إنهاء دراستك بفارغ الصبر ، لقد أخبرني بوجود مهنة شاغرة في وكالة أدبية تابعة للسفارة، فقلت له موافقة على ذلك : سأعتبره مكانا لإثبات دراستي وقدرتي على الترجمة فقال لي : إلين

عليكِ أن تكوني شجاعة لتثبتي نفسك في الوظيفة حتى وإن كانت مؤقتة .

أغلقت الهاتف معه وسألت عمتي نيرمين عن معرفتها بعودة والدي ، لقد تغيرت ملامحها شعرت بأن هنالك أمر ما تخفيه عني ، لكنها قالت لي : لقد نسيت اخبارك بذلك ، فقلت لها : لا بأس يا عمتي هل ستخبريني عن قصة حياتك ؟!

فقالت لي : تعالي لنجلس على الأريكة وسأخبرك بقصتي لكن من أين سنبدأ ؟! قلت لها : لا أعلم هل تخبريني عن طفولتك أولا ؟! نظرت إليّ قائلة : لقد عشت في منطقة شورديتش حياة بسيطة من عائلة تتكون من أم وأب وطفلين وأنا الفتاة التي تبنتها عائلة كامروا لأجل مساعدتهم في أمور المنزل ، لقد عشت دون معرفة عائلتي الحقيقية، كان ذلك يثير استغرابي دوما والسؤال الدائم في ذهني من تكون عائلتي ؟! فحسب مسؤولة الميتم بأنهم استيقظوا صباحا

فوجدوني أمام الميتم ولم يكن هنالك أي علامة أو أي شهادة تدل على عائلتي ، عشت في الميتم حياة صعبة ومختلفة عن حياة الأطفال الذين يعيشون تحت سقف عائلاتهم، في السنوات الأولى سيكون عليك أداء الكثير من المهمات المنزلية دون مراعاة صغر سنك ، كنت أقوم بتنظيف الدرج كاملا دون مساعدة أحد، وغسل الصحون في مطبخ بارد في ليالي الشتاء، أتعلمي لم أكن لأغادر السكن مهما حدث ، حتى لو فكرت بذلك فأين سأذهب .

قاطعتها قائلة : يا إلهي ، لقد عشت طفولة قاسية وصعبة ، فقالت لي : نعم ، كنت مضطرة للبقاء في السكن ،كانت السنوات تمر بسرعة كبيرة ، تعلمت القراءة والكتابة وعندما أصبحت في سن المراهقة ، طلبوا مني العمل في ملاهي ليلة مقابل النقود لكنني لم أقبل بذلك ، كانت أوروبا تعاني من انحلال أخلاقي فلم أكن راغبة في انجاب طفلة ورميها أمام الميتم أو في

النفايات لأتخلص منها ، لقد عزمت على الهرب من هذا القدر ، قررت أن تكون حياتي مختلفة عما عشته في السابق ، هربت من الميتم كما كنت قد خططت لذلك ، لكنني لم أعرف أين سأذهب ؟! لقد مررت عبر زقاق الشوارع رأيت الفقر والبؤس وشاربي الخمر وفتيات الملاهي الليلة ولم أعرف أين سأذهب ؟! فتاة في سن المراهقة عاجزة عن الذهاب إلى أي مكان ، سرت طويلا حتى تعبت قدماي ، شعرت بالجوع ولم أكن أملك المال لشراء قطعة خبز واحدة ، وصلت إلى الكنيسة فدخلت إلى هناك ،كانت أول مرة أدخل فيها كنيسة في حياتي ، وجدني راهب يعمل في الكنيسة قدم لي الطعام والشاي ، أخبرته بقصتي فرق قلبه لي وقال لي : تستطيعي المكوث هنا ، فقلت له : شكرا لك ، سأعمل على تنظيف الكنيسة هل تقبل ذلك ؟! فقال لي : نعم ،ستعملي بها ، لقد عرفت منه بأن هنالك سكن في الكنيسة يقدم المساعدات للاجئيين، فذهبت إليه بدأت المكوث فيه ، كنت أقوم بالطبخ والتنظيف لهم

مقابل البقاء معهم ، لم يكن العمل رغما عني إنما على رغبة مني ، كانت هنالك معلمة تدعى جورجيا كانت تعلمني الكتب وتساعدني في الدراسة كما قدمت لي منحة دراسية في إحدى المدارس الداخلية ، لقد شعرت بأن فتاة مثلي ستكون ناجحة إن تم اعطائها فرصة كهذه ، كنت محظوظة جدا بهذه المنحة الدراسية التي حصلت عليها بعد أشهر من عملي في الكنيسة ، درست وتعلمت بفضل المنحة الدراسية لم أنسى يوما ما قدمته لي المعلمة جورجيا ، حتى أنها لم تتوقف عن التواصل معي .

حين سمعت قصة دراسة العمة نيرمين عرفت بأن هنالك قدر جميل يمد لنا يده لننجح ولينقلنا إلى مكان آخر نعثر فيه على أنفسنا.

بعضهم يهديك الحب لتتمكن من الإستمرار بسعادة لا يطلب منك شئ سوى أن تكون بخير ، لقد قدمت لي المعلمة جورجيا منحة للحياة وليست للدراسة ، عملت

بعدها ممرضة في قسم الطوارئ ، عرفت الكثير من الأشخاص الذين قدمت لهم المساعدة الطبية ، كان يؤسفني حقا لحظات الوداع عند موت أحد المرضى ، كان أمرا يجلب لي الحزن واليأس .

الوداع أمرا لا مفر منه ، مهما بدا بعيدا ومستحيلا ،أحببت رجلا كان يعمل في شركة الدواء ،كان يبحث عن فتاة أحلامه وهو يتنقل من مدينة إلى أخرى ، وقعت عيناه عليّ فأحبني كثيرا ،ظننته لصا يتبعني ليسرق مني حقيبتي لكنه كان لصا من نوع آخر سلب لي قلبي ، أخبرني بأنه معجب بي وبعدها بدأنا بالتعرف على بعضنا البعض ، لم يكن يريد مني سوى الحب ، أتصدقي بأنه كان يقول لي دوما : لا أريد منك سوى الحب فأنا رجل يبحث عن الحب ، تزوجته وانجبت منه طفلان ، عشنا حياة مليئة بالحب فقد كنّا نذهب إلى عملنا مع بعضنا البعض ، نتقاسم كل شئ ، لم يتركني لحزني ولم أكن لأتركه ....

كانت المحطة الأجمل في حياتي إنها محطة الحب لكن ما إن ترحل حتى نشعر بألم يتملك حياتنا، لكنني اجتزت ذلك ....

بعد الحرب لم أخسر زوجي واطفالي ووظيفتي ومنزلي وحياتي بل خسرت نفسي أيضا ، لم أكن قادرة على النهوض من فراشي لأعمل أي شئ .

لكن بسبب حاجتي للطعام والمأوى عدت أبحث عن العمل ، لم أعرف أين سأذهب ؟! ذهبت إلى الكنيسة مرة أخرى ...عدت من حيث بدأت ....

الحياة في أوروبا قاسية جدا وخاصة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، لقد طرأ تغيير كبير على طبيعة الحياة كما كان للثورة الصناعية دور كبير في التخلي عن العمال ، لقد شهدت أيام وسنوات من التحديات الصعبة التي مررنا بها ، لكنني عدت أبحث عن أي وظيفة وفي أي مكان ، لقد رأيت بائعات الهوى في الطريق ورأيت اللصوص وقاطعي الطرق والأوغاد ، رأيت

أيضا الطبقة البرجوازية حيت قدمت خدمة تنظيف المنازل وعرفت الفقراء الذين ينامون في الشوارع ورأيت عمالة الأطفال والتشرد والضياع ، لقد رأيت كل شئ في هذه الحياة .

سألتها كيف عرفت والدي ؟! فقالت لي : إنها قصة طويلة لكنني سأخبرك بها ، لقد عملت في محل لصنع الأحذية وكان صاحبة رجل عجوز وقد كان يسمح لي بالمكوث داخل المحل وفي أحد الأيام كان والدك قد ارتاد المحل أكثر من مرة فعرفت أنه صديق للسيد هاليز وبعدها أخبره السيد عني وطلب مني أن ابدأ العمل في منزلكم ، سمعت القصة منه وعرفت بأنه سيتركني أعيش معك في المنزل ،ولم أرفض ذلك بل شعرت بأن هنالك بيت يفتح لي ذراعه ليأويني فقبلت بذلك .

إننا بعد مدة من الوقت ننسى أحزاننا ونحاول أن نعثر على مكان لنأوي إليه ،مكان تستريح فيه قافلتنا من التعب .....

"الفصل الأخير "

"الرسالة الأولى "

منذ خروجي من المستشفى عزمت على شكرك يا آنسة ، لقد عرفت من الممرضة بأنك كنتِ موجودة تنتظري خروجي من العملية ، أتعلمي بأنني خرجت لا أملك شئ سوى هذه القلادة التي سقطت مني أرضا ، شعرت بمدى وفائك تجاه ما يملكه الآخرين ، إنها القلادة التي تركتها لي حبيبتي بيلا قبل أن تموت في الحرب ...

لم أستطع العثور عليكِ كانت مهمتي صعبة ، أردت شكرك لكن بطريقتي ،عرفت بأن والدتك لم تكن بخير لا أعلم لماذا بقيت صورتك في ذهني ؟!

بعد أن خرجت من المستشفى أخذت عنوان منزلكم من الاستعلامات، طرقت بابكم كثيرا حاملا باقة ورد بيدي لكن لم يكن ليفتح لي أحدهم الباب ، عرفت من جارتكم بأنكم تبحثون عن كمال لذلك عمدت العودة في يوم آخر ....

مرت أسابيع ولم أعد لزيارتكم، كنت مشغولا في تقديم استقالتي من العمل فقد تضررت قدمي كثيرا ولم يعد بإمكاني العمل في الجيش ، لقد خانتني صحتي وفقدت عائلتي وحبيبتي ولم أعد أملك أي شئ .

اللقاء الأول كان بداية لي لأعرف حجم الألم الذي مررت به ، رأيتك عند محطة الباص لقد كنتِ خائفة وقلقة لكن عيناكِ دافئة لتمحي برودة الطريق الطويل الذي انتظرت لقائك به .

لكنني لم أعرف ماذا سأقول لك ؟! شعرت بشئ غريب وكأنك عيناكِ تحتاج لشئ ما لم أكن لأعرفه؟! شعرت

بمدى وحدتك في هذا الجو البارد وكأنك تنتظرين شئ ما ....

عدت إلى منزلي دون التحدث معكِ ، عرفت بأنني تأخرت كثيرا على شكرك لكنني في ذلك الوقت تملكني اليأس والحيرة والكثير من المشاعر التي اجتاحت قلبي فجأة بدون أي ترتيب مسبق ...

قررت العودة إليكِ مرة أخرى ، قلبت صفحات الجريدة ....شربت قهوتي على مهل وركبت سيارتي لأقف عند محطة الباص ، كنت في المقدمة وبقيت معكِ حتى أوصلتِ السيدة العجوز إلى منزلها ، لقد عرفت بأنك تملكين صفة مساعدة الآخرين ، تفضلين تفضلين ذلك على نفسك .

اعتدت على مراقبتك من بعيد ، نثرت عطري في طريقك كي تتعرفي عليّ في طرقاتك، كنت في محل العطور وفي المكتبة تركت لك الرسالة الأولى " هنالك

شئ جميل يستحق أن نعيش لأجله " وعدت إلى مكتبي .....

تأكدت بأنك ستكتبين لي حيرتك وخوفك وقلقك، رميت لك برسالة لتأتي إليّ برسائل أخرى .....

رسائل يبعثها المطر لقارئ عصفت به ظروف الحياة فأصبح يعيش وحيدا بين جدران منزل واسع ....

كنت أريد التعرف عليكِ عن قرب لكن الفارق بيننا كبير....العمر ...المسافات ....لكنني شعرت برقصة قلبك حين قرأتِ رسالتي الأولى ...

الرسالة الأولى تبقى في الذاكرة ، نحفظ تفاصيلها، نجوب سطورها، نضعها تحت وسائدنا وننام ، إنها اللهفة والحب حين يجتاح حياتنا ....

كنت حزينا جدا بعد معرفتي خبر وفاة والدتك وأخيكِ كمال ، حزنت كثيرا عليكِ شعرت بأننا نملك عزاءا واحدا كلانا فقد عائلته في الحرب .

كلما حاولت الاقتراب منك عرفت حجم التشابه والاختلاف بيننا ... فارق العمر بيننا كبير أنتِ تدرسين تملكين مستقبلا بينما فقدت وظيفتي بعد اصابتي بالحرب فرغم أنني أحصل على راتبي التقاعدي إلا أنني أشعر بفراغ كبير ....ينقصني وجودك في حياتي ....

احتاجك .....

تركت الجريدة جانبا ،وجهت نظري إلى النافذة كان صديقي لويس يدخل من مدخل المنزل لوح بيده فذهبت لأفتح له الباب ،استقبلني بحفاوة عرفت بأن لديه أخبار سعيدة بشأن استثماراته في البحر الأسود لقد بدأ مشروعه بتجارة البُن ، لقد كان مسرورا بتحقيق نجاحات كبيرة لم يكن لتتحقق معه من قبل ، قال لي : أتعلم بأنني حققت مبالغ طائلة لم أكن لأحصل عليها فقلت له : بالتوفيق لويس حظا موفقا .

احتسينا القهوة معا فاقترح عليّ وضع راتبي التقاعدي لأجل مشاركته في تجارة البُن ، أخبرني بأنه سيسافر أوروبا بأكملها في فصل الشتاء ، لم أكن أفكر بالعمل مرة أخرى لكنني اقتنعت بما أخبرني به ، قلت له : سأفكر بالأمر لكنني لن أقبل بسرعة كما تتوقع ، رد عليّ وهو يربت على كتفي : سأنتظرك صديقي.....

في المساء فكرت بالأمر مجددا ، لقد أصابني الأرق بسبب الليل الطويل والوحدة التي أعيشها فرغم مرور السنوات إلا أنني لا زلت أعاني منها .

قد يحب الرجل أكثر بكثير من المرأة فهو لا يسكن بالحياة إلا معها ،فتطيب جروحه وترحل وحدته ....

الحب وحده كفيل بأن يعيد النبض إلى حياة الرجل ، يشعره بمدى أهميته ، كل ما كان عليّ فعله هو مساعدة إلين ، لقد اشتريت لها كتبها الدراسية أحببت أن تكون أول هدية لها في هذه الظروف ، كم كنت أرغب برؤية ابتسامتها فحتى صباح ذلك اليوم وقفت

بعيدا عن منزلهم عندما فتحت العمة الباب فأخذت الطرد من ساعي البريد .

لطالما وقفت بعيدا لأنتظر رؤيتك لكنني عدت إلى المنزل دون ذلك ، كان يوما متعبا بالنسبة لقلبي فقد قررت اخبار لويس بأنني سأشاركه السفر حول أوروبا ، لقد أخذت قرارا سريعا على العكس مما كنت أظن ، لقد تفاجأ بذلك كما أنا طلب مني أن نخرج سويا للاحتفال بذلك فقبلت ....

في تلك الليلة احتسينا الخمر وسهرنا طوال الليل لكنني لم أكن لأنظر إلى أي امرأة مهما كانت تبدو جميلة ومثيرة ، تركته وانسحبت للعودة إلى المنزل لقد قال لي ثملا لقد اعتدت على الوحدة يا صديقي فقلت له أجل سأعود الآن إلى المنزل قبل أن أفقد توازني ،عدت إلى المنزل وما إن وضعت نفسي على السرير حتى نمت ....

الليل طويل جدا في فصل الشتاء وبارد جدا دون من نحبهم ، اعتدت على ذلك لأنني لم أجد الدفئ في عيون أي امرأة ....أنتِ فقط كانت عيناك مليئة بالدفئ لا أعلم كيف وقعت بحبك لكنني في النهاية تأكدت بأنني أحبك أحبكِ كثيرا....

الأيام كانت تشدني نحوك ، عرفت بأنك مقدمة على منحة دراسية فأسرعت في تقديم التسهيلات التي لا علم لك بها ، فمعارفي كثيرة واستطعت بمعرفتي جعل المنحة من نصيبك ، لطالما قررت أن يكون لك مستقبلا روائيا وأدبيا يناسبك كفتاة تحلم بالانسانية دوما ....

بدأت رحلتي في أوروبا كان عليّ الإطلاع على السفن التجارية التي علينا استخدامها في تجارة البُن ، كان عليّ الحصول على قرض بمبلغ كبير لتستمر شراكتنا في العمل ، شعرت بأن العمل بدأ يجدد بداخلي شعورا آخر .

كان التنقل من منطقة إلى أخرى يجدد شراكتنا مع الزبائن ومع الشركات التي ستدفع لنا ، بدأ العمل يأخذ جدية كبيرة وليس كما توقعت ، رأيت كم أن لويس لديه أفكار مبتكرة للتوسع في أوروبا .....

رميت برسائلي بعيدا لعنوان كان أنتِ يا إلين ، أتعرفي ماذا يشعر حين تكون وجهته آمنة ومطمئنة؟! إنها يكون مستعدا ليغمض عيناه ويسير نحوها دون التردد أو الخوف .

هطل المطر بغزارة لم أعرف ماذا سأكتب لك فكيف ستكون رسالتي الأخيرة ؟! أو ستستغرق وقتا أطول لأكتب لك مرة أخرى ، لا أعلم كم ستستغرق الرحلة في أوروبا وخاصة بأن الثلوج قد غطت أوروبا .....

" إلين "

لم أكن أتوقع بأن يمضي الفصل الدراسي دون رسالة منك وأنا التي اعتادت على وجودك ، كيف فرطت بي اقلامك هذه المرة فلم تكتب لي ؟!

أما في عطلتي فقد كان الوقت بطيئا.....الانتظار يجعل الوقت يمر ببطئ ، انتظرت عودة والدي التي لم تكن مثل توقعاتي والتي خالفت كل التوقعات .

فتحت له الباب لكنني لم أعرف بأنني سأفتح بابا على الماضي الذي كلما حاولت تجاوزه عدت إليه ، قال لي : لقد كبرت يا صغيرتي ، قلت له : أجل كبرت كثيرا في غيابك فكم اشتقت إليك ، عانقني ورفعني عن الأرض ، كم اشتقت له ولصوته!!

نظرت إلى يمينه بتعجب واستغراب منْ هذه السيدة ؟!

قال لي بهدوء : صغيرتي ثم سكت ، دق قلبي كثيرا فقال لي : إنها زوجتي ، أدرت ظهري وبسرعة ذهبت إلى غرفتي ، أغلقت الباب على نفسي وأخذت أبكي

.....

كانت عمتي نيرمين ما تزال في السوق ، دق باب الغرفة كثيرا كان يريد التحدث معي لكنني لم أقبل بذلك ، رميت بي بعيدا بحجة الإعتماد على نفسي بينما تزوجت وبدأت حياتك من جديد .

جائت عمتي نيرمين طرقت الباب ففتحته لها : جلست بجانبي قائلة لي : لا تخزني يا إلين ثم هممت قائلة لقد كنت أعلم بذلك لكنني لم أخبرك ، بكيت كثيرا .....شعرت بالخيبة .....

كنت أنتظر انتهاء العطلة في أقصر وقت ممكن ، كم اشتقت لذلك الرجل ولرسائله التي أصبحت عالمي ، كم أشعر بأنه بعيد ....لأول مرة ....

كان عليّ تقبل وجود امرأة في حياتنا ، لم أكن لأقبل بالتحدث إليها لكنني مع الوقت أصبحت أتكلم معها ، كم كنت أرى السعادة على وجه أبي ، لقد تغير كثيرا بوجودها .

لم أكن أعلم كم أن الرجال يتغيرون كثيرا عندما يتزوجون فزوجته كلير من أصول فرنسية تعتني به كثيرا جعلته يتغير كثيرا ...

في بداية الأمر لم أتقبل ذلك لكنني تركت له الأمر ليختار حياته كما يريد ، تذكرت رسالتك التي أرسلتها لي " دعي الأمور تسير وفقا لمجراها" كم فهمت ذلك بعد وقت من الآن ....لكنني تغيرت كثيرا فقد سمحت للتغيير بأن يمارس طريقه لتغيير شخصيتي وافكاري.

مرّ الشتاء مرة أخرى إنه صادق في موعده فهو لا يخالف موعده ، يأتي كل عام فيهل علينا من بركاته ومطره ورياحه التي تفتح لك بابا لتحلم من جديد ....لتعيد ذكرياتك كم تمنيت أن أعود طالبة في المدرسة لألتقي بك ، لقد أصبح اللقاء حلما جميلا لا يفارقني لكن ماذا عنك ؟!

جائت كلير تدق باب غرفتي فقالت لي : لقد وصلتني رسالة لك فقلت لها : منْ ؟! فقالت لي : رجل يدعى

لويس هل تعرفينه ؟! قلت لها : لا أعلمه فقالت لي : إنه تاجر معروف في فرنسا وأوروبا بأكملها فقلت له : لا أعرفه ، اخذت الرسالة بينما خرجت من الغرفة فتحتها كانت من السيد ذاته أيعقل بأن اسمه لويس ، قرأتها كان قد كتب لي : لقد تأخرت كثيرا هذه المرة لكنني لم أنساكِ أبدا ، افتقدتك كثيرا عزيزتي إلين أتمنى بأن تقبلي بي هذه المرة ، محبك المخلص ويليام....

قرأت الرسالة فتسارعت دقات قلبي لقد عرفت بأن اسمه ويليام لكن ما علاقة لويس بذلك ....

انتظرت طويلا رسالة أخرى ليوضح لي الأمر ، لكن كان الانتظار مختلفا هذه المرة ....

جلسنا على مائدة الطعام فأخبرني والدي بأن هنالك ضيف قادم لنا لم يفسح عن اسمه لكنني انتظرت قدومه ، كان الجو ماطرا والبيت دافئ جدا ، والمائدة ممتلئة بالطعام الساخن حتى دق الباب ، كان رجلا

عريضا يرتدي بدلة رسمية ووجهه ضاحك وعيناه جميلتان، يمسك الورد بيده رحب به والدي وعانقه وسلم علينا ، نظرت كثيرا إلى عيناه ...

أخبرنا والدي عنه إنه ويليام صاحب مشروع البن في أوروبا ، خفق قلبي سريعا أيعقل بأنك أنت ؟!

نظر إليّ وقد همم قائلا وإنني يشرفني الزواج من ابنتك الجميلة إلين ، كان الأمر مفاجأ بالنسبة لي ، حلمت كثيرا بلقائك لكنني لم أعرف ماذا شعرت حين التقيتك ، اللقاء بك أجمل بكثير مما يبدو في الحلم .....

تزوجته وسافرنا معا في فصل شتاء قارص حول أوروبا ، لقد أخبرني ذات يوم " أنتِ دفئ قلبي يا إلين " كم كانت عيناه دافئه .....

بعد كل شتاء ربيع جميل وبعد الأحلام الجميلة واقع أجمل ومحطات علينا أن نعيشها بكل ما فينا من حب .

الخاتمة

هذه الرواية من وحي الخيال ولا تمثل أي شيء حقيقي
كتبتها لتبعث الأمل في قلوبكم من أجل الإستمرار
بالحياة بطريقة جميلة تجعلنا ننجز كل ما نُحب .

أتمنى أن تنال إعجابكم وشكرا لكم ...والشكر الكبير لمن قدم لي الدعم من عائلتي وأصدقائي ورفيقة دربي وحبيبة قلبي أمي الغالية ...